قصة الأرض الفلسطينية

للأستاذ محمد محمد حسن شراب

أ - الاسم، أقدمُ اسم أطلق على أرض فلسطين هو «أرض كنعان» أو «كنعان» وتوجد أول إشارة إلى هذه التسمية في حفريات «تل العمارنة»(١) التي يرجع عصرها إلى خمسة عشر قرناً قبل الميلاد، والاسم الذي تذكره هذه الحفريات هو، «كينا هي» أو «كينا هنا» وأصله كنعان، وأشارت هذه الحفريات بهذا الاسم إلى البلاد الواقعة غربي نهر الأردن بما فيها سورية. وكنعان، إحدي القبائل الآمورية(٢) التي جاءت إلى فلسطين من الجزيرة العربية، منذ أقدم العصور وكانت أقدم الهجرات التي نعرفها عن يقين حوالي سنة (٣٥٠٠) قبل الميلاد، والتي اتجهت من شبه الجزيرة العربية نحو الشمال الشرقي. وعلى هذا فإن العرب يوجدون في فلسطين منذ أكثر من خمسة آلاف سنة.(٣) ومن الفروع الكنعانية المعروفة «اليبوسيّون» الذين كانت عاصمة بلادهم القدس القديمة المعروفة باسم «أوروساليم» أما اسم «بالستين» الذين عربه العرب فنطقوه فلسطين. فهو مشتق من اسم الشعب الذي كان يسكن السهول الساحلية من أرض كنعان وكان الإغريق هم الذين بدءوا في إطلاق هذا الاسم على الجزء الداخلي من البلاد بعد أن كان مخصصاً للسهول الساحلية(٤). ولأول مرة يتخذ هذا الاسم الصفة الرسمية حين صكّ الامبراطور فسباسيان، هذا الاسم على النقود التي أصدرها عقب قهر اليهود سنة ٧٠م.(٥) وكان الرومان قد قسموا فلسطين في آخر عهدهم إلى ثلاثة أقسام:

(١) تل العمارنة، موضع في مصر على النيل (محافظة أسيوط) تقوم عليه أنقاض عاصمة الفرعون أخناتون نحو ١٣٦٦ قبل الميلاد، اكتشفت فيه المراسلات التي تبادلها الفراعنة العمارنة وملوك الشرق.

(٢) ومن القبائل الأمورية التي عاشت غربي نهر الأردن، الحيثيون، والحيويون، واليبوسيون، والعموريون.

(٣) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، تأليف فيليب حتي. ترجمة جورج حداد.

(٤) تاريخ فلسطين القديم ـ لعبد الحكيم ذا النون ص ٤٦.

(٥) تاريخ فلسطين القديم، لظفر الإسلام خان ص ١٨. و«الموسوعة الفلسطينية» مادة فلسطين واسم PLST. وتحتوي هذه الكلمة (المصرية الهيروغليفية) على الشعب الذي أعطى فلسطين اسمه «بلست» العنصر الرئيس لكلمة «فلسطين» بدون النون، التي قد تكون للنسبة، أو للجمع

١ ـ فلسطين الأولى : ويُطلق على منطقة وسط البلاد .
٢ ـ فلسطين الثانية : ويُطلق على الجليل .
٣ ـ فلسطين الثالثة : ويطلق على الأجزاء الباقية في جنوب البلاد .(٦)

أما العربُ : فقد أطلقوا اسم فلسطين، على هذه الديار مُنْذ العصر الجاهلي ولكنهم ينسبون إلى الاسم بدون ياء، ونون، فيقولون : فلسطيّ. قال الأعشى :

متى تُسْقَ من أنيابها بعد هَجْعة ... من الليل شربا حين مالت طلاتها
تَخَلْه فلسطياً إذا ذُقت طَعْمه ... على رَبَذات النيّ حُمش لثاتها

وقال ابن هَرْمة، وهو عباسيّ :

كأنَّ فاها لمن تُؤنّســـه ... بَعْد غُبـُوب الرُّقاد والعَلَل
كأسٌ فلسـطيّـةٌ مُعتّقـةٌ ... شِيبَتْ بماء من مُزْنة السَّبَل(٧)

... وقد ورد اسمُ فلسطين في العهد الذي أعطاه عمر بن الخطاب إلى أهل اللد ..(٨) ولكن اسم فلسطين لم يكن يشمل فلسطين المعروفة، فقد كان جند الأردن يحوي عدداً من مدن فلسطين الحالية، مثل عكا، وطبرية التي كانت عاصمة جند الأردن، ويُضمُّ إلى جُند فلسطين من مدن شرقي الأردن، عمّان (انظر معجم البلدان لياقوت).

وتكلم اللغويون في إعرابها : فمنهم من يُعربها إعراب المفرد، ويجعلها بمنزلة مالا ينصرفُ. ومنهم من يجعلُ إعرابها بالحرف الذي قبل النون، فيقول: هذه فلسطون ورأيت فلسطين، ومررت بفلسطين.

أما في العهد التركي، فلم تكن فلسطين في مصطلحاتهم السياسية غير وحدتين إداريتين هما : بيروت، والقدس.(٩)

وحيث إنَّ «فلسطين» هو الاسم المعترف به في الأدب المسيحي للبلاد، فقد دخل هذا الاسم، قبل الاحتلال الإنجليزي وبَعْدَ. إلى المعاهدات والنصوص السياسية. فاستعمل في

(٦) « بلادنا فلسطين » الجزء الأول ص ٦٩٢. لمصطفى مراد الدبّاغ. و «الموسوعة الفلسطينية» مادة فلسطين.
(٧) معجم البلدان ـ لياقوت الحموي (فلسطين).
(٨) تاريخ الطبري جـ ٣ / ٦٠٩ ـ دار المعارف.
(٩) بعد تنظيم الولايات في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أصبحت فلسطين إداريا قسمين: الأول : متصرفية القدس، وتشمل النصف الجنوبي من البلاد، والثاني يتكون من شمال البلاد ويقع في متصرفتي نابلس وعكا، وهاتان المتصرفيتان كانتا تتبعان ولاية بيروت، [الموسوعة الفلسطينية].

تصريح بلفور. وفي اتفاقية السلام مع تركيا (لوزان ٢٤/٧/١٩٢٣م) كما حواه صك الانتداب.

أهلُ الأرض وعُمّارها :

تقع فلسطين في الغرب من قارة أسيا، وتتوسط مفارق الطرق بين أسيا وأفريقيا وأوروبا، وتصل ما بين البحر الأبيض المتوسط (الموصل بالمحيط الأطلنطي) والبحر الأحمر، وجزء من المحيط الهندي. وتبلغ مساحتها حوالي ٢٧٠٠٩ كيل مربع. ويبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب نحو ٤٣٠ كيلاً. وأما عرضها فيتراوح في الشمال بين ٥١ كيلاً و ٧٠ كيلاً، وفي الوسط يتراوح العرض بين ٧٢ ـ ٩٥ كيلاً، ويتسع في الجنوب حتى يصل إلى نحو ١١٧ كيلاً.

ويشهد تاريخ فلسطين أن وضعها الجغرافي وصلتها القوية بالأراضي المجاورة حدّدا على مرّ الزمن تطورها ومصيرها، وكانت أحوالها تتأثر دائماً بأوضاع الجزيرة العربية ومصر، وسورية والعراق.

ففي أواخر الألف الرابع قبل الميلاد تعرضت فلسطين لموجة هجرة عربية كبيرة هي الموجة المعروفة باسم «الأمورية الكنعانية» فنزل هؤلاء الأموريون داخل بلاد الشام وجنوبها الشرقي، واستوطن الكنعانيون ساحلها وجنوبها الغربي المسمى فلسطين.. والمعروف أن الكنعانيين والفينيقيين شعب واحد، نسباً ولغةً وديناً وحضارةً، انقسم إلى قسمين، سكن الأول فلسطين، وسكن الثاني الساحل الشامي من مصب نهر العاصي إلى جنوبي الكرمل[١٠].. ويُرجّح أن الكنعانيين كانوا يقطنون سواحل الخليج العربي قبل نزوحهم إلى الساحل السوري (شواطئ سورية وفلسطين ولبنان) ونسبة لهؤلاء سُمّيت فلسطين أرض كنعان، وكان أقدم اسم أطلق على البلاد.

وبقيت للكنعانيين السيادة ما يقرب من ألفين وخمسمائة سنة، أي: من ٢٥٠٠ قبل الميلاد، إلى نحو (١٠٠٠) قبل الميلاد، حين تمكن اليهود من إقامة مملكتهم، وقد اعترف الأصدقاء، والأعداء، في ذلك الزمان وما تلته من الأزمنة أنّ اسم هذه البلاد هو «كنعان» وأن شعبها كنعاني، وقد جاء هذا الاعتراف في التوراة حيث تسمّى القبائل التي عاشت غربي الأردن، الكنعانيين وتطلق على تلك البلاد اسم «أرض كنعان». (انظر : الإصحاح ١٣ ـ يشوع).

(١٠) نظر «قلب لبنان» لأمين الريحاني ص ٤٣٣ و «بلادنا فلسطين» لمصطفى مراد الدباغ جـ ١/ ٢٨٧ ـ ٢٩٠.

والثابت أن هؤلاء الكنعانيين إنما هُمْ من عرب الجزيرة العربية، مما يسمى «العرب البائدة»[11] الذين تحدث القرآن الكريم عنهم، في قصتي النبي هود ـ بالأحقاف ـ والنبي صالح، في وادي القرى (العلا) حيث آثارهم تدل على حضارتهم.

وقد ذكر ابن منظور في لسان العرب، أسماء الأنبياء العرب، وهم محمد وإسماعيل وشعيب وصالح، وهود، صلوات الله عليهم، ثم قال؛ وهذا يدل على أن لسان العرب قديم، لأن النبي هوداً من أقدم الأنبياء بعد نوح، وإدريس عليهما السلام، وأرسله الله إلى قومه في الأحقاف، جنوب الجزيرة العربية، ولا يرسل النبي إلى قومه إلا بلسانهم.

● ولم تكن هجرة الكنعانيين إلى موطنهم الجديد، هجرةً مؤقتة، وإنما كانت هجرة الثبات والعمران، وبناء الممالك، وقد أثبت التاريخ نسبة عدد من المدن القديمة إليهم، فهم أول من بنوا القدس، وكانت تسمى «يبوس» نسبة إلى «اليبوسيين» من الكنعانيين، وسموها أيضاً «أوروساليم» ومدينة «حبرون أو أربع، وهي مدينة الخليل، ومدينة «يريحو» (أريحا) وبيت شان، وهي مدينة بيسان، وغزة، وداجون وهي بيت دجن وشكيم، وهي! نابلس وعكو، وهي عكا[12].

ومع ما مرَّ على البلاد، بعد استقرار الكنعانيين بها، من غزو على يد الفراعنة والآشوريين، واليونان والموسويين، فإن سكان كنعان لم يهجروها، وإذا استولى الغازون على مملكة من ممالكهم، تبقى لهم ممالك أخرى. وقد اعترفت التوراة بذلك بعد دخول الموسويين إلى أرض كنعان، حيث يقول الإصحاح الثالث عشر؛ «وقد بقيت أراض للامتلاك كثيرة جداً، ومن الأراضي الباقية؛ كلّ بقاع الفلسطينيين، وكلّ أرض الجشوريين، من الشيحور، (الفرع الشرقي من النيل) الجاري في مصر إلى تخْم عقرون[13] (مدينة جنوب شرق يافا) شمالاً وهي للكنعانيين...».

واستمرت الهجرات العربية إلى أرض كنعان في جميع القرون التالية، فكانت رافداً جديداً لعروبة الأرض، وتجديداً مستمراً للدماء العربية. وقد ذكر القرآن قصة النبي شعيب حيث أرسله الله إلى (مدين) واختلفوا في مكان هؤلاء القوم، فقالوا؛ إنّ مدين على بحر القلزم (الأحمر) محاذية لتبوك، وقال بعضهم؛ إنها في صحراء النقب[14] وقال قوم إنها في

(١١) انظر تاريخ الطبري جـ ١/ص ٢٠٢ ـ ٢٠٧، وتاريخ ابن خلدون جـ ١/٩، ١٠، ٤٤.
(١٢) بلادنا فلسطين، لمصطفى الدباغ جـ ١/ ٤٢٠.
(١٣) كانت تقوم على البقعة المعروفة باسم «خربة المقنع» على مسيرة ستة أميال للجنوب الشرقي من قرية عاقر، من أعمال الرملة .
(١٤) انظر «معجم ما استعجم» للبكري. و«النبوة والأنبياء، لمحمد علي الصابوني ص ٢٦١ .

شرقي الأردن، عند مدينة (معان) الحالية. وقيل: مدين: هي قرية (كفرمندة) من أعمال طبرية.. وقد كان قوم مدين من العرب، لأن النبي شعيباً، عربي... ومهما كان موقعهم، فإن في وجودهم في تلك المناطق دليل على تجدد الهجرات نحو تلك الديار، ودليل على الصفة العربية التي ترفد مناطق بلاد الشام.

● ومن العرب البائدة غير الكنعانيين، قبائل، طسم، وجديس، وعاد، وثمود وعمليق، وعبد ضَخْم، وجُرم.. وغيرها... وقد ذكرت كتب التاريخ أن لهذه القبائل علاقة بأرض كنْعان، حيث نزلت فلسطين في عهدها العربي الكنعاني فذكر القلقشندي في «نهاية الأرب» أن جماعة من «جديس وطسم» نزلت بلاد مدين، وغور البلاونة (في غور الأردن) والوهادنة (في محافظة إربد، والغور، وكورة جبل جرش قرب الغور.)[١٥]

ويذكر المؤرخون أن «عاداً» أقدم القبائل العربية البائدة، ويضربون بهم المثل في القدم، فكانوا ينسبون الشيء الذي يريدون أن يبالغوا في قدمه إلى «عاد» فيقولون إنه «عادي»، وبئر عادي.. موغلة في القدم كأنها منسوبة إلى قوم عاد. ويقول المؤرخون: إن عاداً هو أول من ملك من العرب وطال عمره وكثر ولده، وفي عهد ولده «شدّاد» استولى على الشام ومنها فلسطين (انظر: تاريخ اليعقوبي ١٣/٢. وتاريخ ابن خلدون ٣٥/٢.

ويقول النُوَيري في «نهاية الأرب» إن اليهود لما دخلوا أريحا بقيادة «يوشع بن نون» في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، كان بها بقية من عاد.

● وقبيلة ثمود، قبيلة عربية بائدة، كانت تقيم في بلاد الحجر من وادي القرى (العُلا) ويقولون إنه كان بين صالح الثمودي، وهود العادي نحو مائة سنة (مروج الذهب)[١٦] وقد أرسل الله إليهم النبي صالحاً قال تعالى {وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى، فأخذتهم صاعقة العذاب بما كانوا يكسبون، ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون} .. وقد مضى النبي صالح عليه السلام، ومن آمنوا معه إلى الشام، حاملين ما قدروا عليه من أموالهم فنزلوا بأرض فلسطين، في موضع مدينة الرملة، وبقي في فلسطين إلى أن مات. (انظر: ابن الأثير ٩٢/١. ونهاية الأرب ٨٥/١٣. ومروج الذهب ١٧/٢) ولذلك تتعدد المقامات باسمه في بلاد فلسطين.[١٧]

(١٥) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ص ١٩.
(١٦) جـ ٢ / ١٥.
(١٧) انظر «القبائل العربية وسلائلها في بلادنا فلسطين» جـ ٢١/١، ٢٢.

وذُكرت «ثمود» في جملة الشعوب التي تغلب عليها في البادية العربية سرجون الثاني الأشوري في القرن الثامن قبل الميلاد، وأنزل جماعة منهم في السامرة من فلسطين، كما أجلى بعض بطونهم إلى غزة. (انظر: تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ٢٤٩/١).

والعمالقة: هم والكنعانيون شعب واحدٌ، كان منزل جدهم عمليق جوار مكة ثم انتشرت قبيلته في الجزيرة العربية والعراق والشام ومصر وغيرها.

وسلائل عمليق التي استقرت في فلسطين نزلت جهات الخليل وجنوبي البلاد وعرفوا بجبابرة الشام لكبر أجسامهم وطولهم وضخامة أبنيتهم، وهم الذين بنوا «بيت جيرين» من أعمال الخليل، لأن معنى هذا الاسم «بيت الأقوياء الجبابرة»[١٨]. والعمالقة الكنعانيون، أول شعب عربي حارب اليهود في غزوتهم فلسطين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد.[١٩].

● وقبيلة مدين، قبيلة عربية، لأن نبيهم عربي، كانت مساكنهم في ديار بئر السبع وسيناء، وفي المنطقة التي تمتد من العقبة ومعان إلى مصب وادي الحمض، عند مدينة الوجه، بالسعودية[٢١] وقال البكري في «معجم ما استعجم» مدين: بلد بالشام معروف، بلقاء غزة. وكان أهل مدين أصحاب تجارة وتاجروا مع مصر ولبنان وفلسطين، وفي نحو القرن السابع عشر قبل الميلاد سحبت إحدى قوافلهم التجارية يوسف بن يعقوب من البئر التي ألقاه بها إخوته. وقد تمكن المدينيون من توسيع رقعة أرضهم فنزلت جماعة منهم مرج بني عامر في فلسطين، وابتدأوا يُضايقون اليهود ويذلونهم وفي «سفر القضاة» أن هؤلاء العرب أذلّوا الإسرائيليين، وأن الربَّ دفع الإسرائيليين إلى أيدي المدينيين سبع سنوات» ولكنهم عادوا لقطاعهم في جنوب فلسطين واستقروا فيه قروناً عديدة. لأن المؤرخ المقريزي يذكر في خططه (جـ ٣٣١/١) أنه كان بأرض مدين مدن كثيرة قد باد أهلها، وخربت وبقي منها (عام ٨٢٥هـ) نحو الأربعين مازالت باقية منها في ناحية فلسطين عَشْر مُدُن. ومن هذه المدن الخلصة، والعوجاء، وبئر السبع، وسبيْطة...

ومن أشهر الممالك العربية التي قامت في فلسطين، الأنباط العرب الذين استوطنوا[٢٢]

---

(١٨) انظر «معجم بلدان فلسطين» من تصنيف / محمد محمد حسن شراب.
(١٩) «النبوّة والأنبياء» للشيخ محمد الصابوني ص ١٨٤.
(٢٠) انظر «معجم البلدان .. لياقوت الحموي» و «معجم معالم الحجاز» لعاتق البلادي.
(٢١) خطط الشام، لمحمد كرد علي جـ ٢١/١.

فلسطين حوالي سنة (٣٠٠) قبل الميلاد، وشملت مملكهم النبطية أراضي فلسطين الجنوبية والشرقية، وشرقي الأردن وجزءاً من سورية، وكانت عاصمتهم البتراء. وأصل الأنباط عربي ثابت يجمع عليه الباحثون بدليل اللغة العربية التي تظهر في كتاباتهم بالآرامية وأسماء أعلامهم (الحارث وعبادة، ومالك) وأسماء آلهتهم، (ذو الشرى، واللات، والعزى ومناة وهبل. ويرى بعض المؤرخين أنهم قدموا من جنوب الجزيرة العربية واستقروا زمناً بالحجاز. ويرى آخرون أنهم حجازيون أصلاً حلوا محل الأيدوميين في موطنهم وأخذوا اللغة الآرامية عنهم.

أما ما يرد في المصادر العربية الإسلامية من كلمة «الأنباط، والنبط، والنبيط» فلا يدل على هؤلاء الأنباط، بل يدل على السكان المحليين العاملين في الزراعة ولاسيما فلاحي سواد العراق.

● أما هجرة العرب العاربة، وعرب الحجاز، إلى فلسطين، قبل الإسلام فإنها لا تحتاج إلى إثبات، ومن أشهر القبائل التي سكنت بلاد الشام ومنها فلسطين قبيلة عاملة من كندة، نسبة إلى الحادث بن عديّ، الذي سمي باسم أمه القضاعية من سكان بادية الشام (ابن خلدون ٢/٥٣٦) ويذكر المؤرخون أن بطوناً عديدة من عاملة كانت خاضعة لزنوبيا ملكة تدمر (٢٦٧ ـ ٢٧٢م) مما يدل على عمق جذور هذه القبيلة في الديار الشامية. (انظر: تاريخ العرب لجواد علي ٢٧٨/٤). وإلى هذه القبيلة ينسب جبل «عاملة» وبلاد «عاملة» بين لبنان وفلسطين، وبلاد جبل عامل، تقع بين نهر الأولي الذي يصب في البحر شمالي صيدا، ووادي القرن الذي ينتهي شمال قرية الزيب في فلسطين وبين البحر المتوسط في الغرب وبحيرة الحولة وأطرافها من الشرق، وهو قسمان شماله من أعمال لبنان، وجنوبه في القسم المغتصب في فلسطين، ومن بقاعه صفد؛ وجبل الجرمق، والبصّة.

ومن القبائل التي سكنت بلاد الشام قديماً، قبيلة، جذام، القبيلة العربية القحطانية، وكانت منازلهمَ ما بين عمّان، ومعان، ومدين، وغزة.

وذكرتْ تراجم الصحابة، زنباع بن روح الصحابي، في عداد أهل فلسطين، وقدْ وفد على الرسول عليه السلام، في المدينة وأعلن إسلامه، وله صحبة ورواية. (الإصابة لابن حجر).. وقد انتشرت عائلة زنباع في فلسطين، وشاع ذكر اسم ابنه من بعده روح بن زنباع. وتسمى أهل فلسطين به، بإضافة ياء النسب إليه فقالوا: روحي، حسب الطريقة التركية في الأسماء، مثلما قالوا: فخري، وشكري، وصبحي. ومن مشاهير الفلسطينيين الذين تسّموا به: روحي الخالدي، نائب بيت المقدس، ونائب رئيس مجلس النواب العثماني وروحي الخطيب، أمين القدس.

● ومن القبائل العربية القحطانية التي سكنت فلسطين قبل الإسلام، قبيلة لخم، وقيل إن الذي استخرج يوسف بن يعقوب من الجب عام ١٦٧٨ قبل الميلاد هي القافلة اللخمية التجارية بقيادة مالك بن ذغر اللخمي[٢٣]. وفي السنة التاسعة من الهجرة وفد على رسول الله وَفْدٌ من (نمارة) من لخم على رأسه تميم الداري، ومعه نُعيم ابن أوس، وبُرير بن هانيء، وأعلنوا إسلامهم، وطلبوا من رسول الله أن يقطعهم القطاع الصغير الذي يضم (حبْرون) الخليل، بما فيها قلعتها وحرمها وبيت إبراهيم، وبيت عينون فلبَّى رسول الله طلبهم[٢٤] وكانوا يقيمون بجوار الخليل. وقد روى رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن تميم الداري، حديث الجساسة، وفيه أسئلة عن ماء طبرية، ونخل بيسان وماء زغر. (صحيح مسلم)..

وأخيراً، لا يجهل أحدٌ الغساسنة، وانتشارهم في بلاد الشام، وقيام ملكهم فيه... الخ «انظر خطط الشام جـ ١ لمحمد كرد علي».

● ولم استقص كل القبائل التي تتابعت على سكنى فلسطين، وإنما ذكرت أمثلة استدل بها على أن الروافد العربية لفلسطين لم تنقطع منذ سكنها الكنعانيون العرب، وأن عرب فلسطين اليوم لم يكونوا من سلالة العرب الفاتحين بعد الإسلام وإنما كانت لهم جذورهم القديمة في البلاد، قبل أن تطأها قدم إنسان عرف تاريخه على وجه الأرض، وما كان العرب الفاتحون إلا ناشري دعوة بين إخوانهم ومحررين دياراً اغتصبها الرومان، تمشياً مع تعاليم القرآن الكريم، وسيرة النبي العربي الكريم، بأن تكون الدعوة أولاً إلى العرب، ثم إلى غيرهم من الأمم الأخرى لأن الدعوة نزلت بلسان عربي، وأولى الناس بمعرفتها أولاً هم العرب.. وقد ظهر هذا جلياً، في حكمة الإسراء والمعراج، وفي سيرة الرسول عليه السلام فيما بعد. فقد أراد الله أن تكون رحلة الرسول إلى السماء على مرحلتين، الأولى الإسراء من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في القدس، ثم العروج إلى السماء من بيت المقدس؛ فلماذا كان الإسراء أولاً إلى القدس ولم يكن المعراج مباشرة من مكة إلى السماء؟ أجاب العلماء عن ذلك؛ بأن من أسرار الإسراء، أن يجمع الرسول تلك الليلة بين القبلتين، أو لأنَّ بيت المقدس كان هجرة غالب الأنبياء، قبله فحصل له الرحيل إليه ليجمع بين أشتات الفضائل، وقيل؛ لأنه محل الحشر. انظر: «الآية الكبرى في شرح قصة الإسراء، لجلال الدين السيوطي و«تفسير سورة الإسراء» في تفسير ابن كثير).

---

(١) جمهرة أنساب العرب، لابن حزم.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر، ترجمة تميم الداري، و«الضوء الساري في معرفة خبر تميم الداري» للمقريزي.

وقال سيد قطب رحمه الله في تفسيره «في ظلال القرآن» جـ ١٢/١٥ «والرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى رحلة مختارة من اللطيف الخبير تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، وتربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعاً، وكأنما أريد بهذه الرحلة العجيبة إعلان وراثة الرسول الأخير لمقدسات الرسل قبله، واشتمال رسالته على هذه المقدسات وارتباط رسالته بها جميعاً..».

ومن حكمة الإسراء أيضاً، الربط بين الأرضين والشعبين، وللدلالة على أن سكان القدس وفلسطين ممن يجب أن تبلغهم دعوة الإسلام بعد تبليغها لعرب الجزيرة. وقد تدّرجت سيرة الرسول في نشر الدعوة نحو هذه الحكمة فبعد أن كادت الدعوة أن تعمّ بلاد الجزيرة العربية، بدأ يتجه نحو الشمال وكانت البداية بفتح خيبر، لتأمين طريق الدعوة إلى أهل الشمال، ثم جاءت تبوك، ودومة الجندل، ومؤتة، وكانت الأخيرة متوغلة في بلاد الشام ثم أخيراً جيش أسامة الذي جاس خلال الديار، وتوغل في عدد من مناطق فلسطين.

● إنَّ هناك مغالطة تاريخية انهمك المؤرخون الصليبيون واليهود في ترويجها خصُوصاً فيما يتعلق، بالعراق وسورية وفلسطين ولبنان، وهي أن العرب الذين يسكنون هذه البلاد اليوم، إنما هم أخلاف المسلمين الذين خرجوا من الجزيرة العربية عقب المدّ الإسلامي، ولقي هذا البهتان اهتماماً خاصاً لدى مؤرخي اليهود الذين أرادوا أن يثبتوا أن عرب اليوم ليسوا إلا سكاناً جدداً حلوا محلّ اليهود والروم في تلك البلاد، وصدقها أو كاد، صغار المتعلمين من أبناء العرب، مع أن المصادر الرسمية اليهودية تكذب هذه المزاعم، حيث تقول دائرة المعارف اليهودية العامة: «فلسطين أصبحت بلاداً عربية ليس فقط بسبب الفتح المحمدي، ولكن لأن العرب كانوا قد أتوا إلى البلاد مهاجرين منذ قرون مضت، فمنهم البدو ومنهم جاليات المحاربين المجربين والتجار، وكانت مسيحيتهم بالأصح هرطوقية (غير مستقيمة) غير عميقة بصورة كافية ولذلك استبدلوها بسهولة بالإسلام»(٢٥).

فالحقيقة الواضحة هي أن سكان فلسطين، هم العرب منذ أقدم عصور التاريخ كما أوضحتُ ذلك من قبلُ بالرجوع إلى سجل التاريخ الصحيح، وتاريخ الهجرات العربية. وقد رأينا أنَّ الأكثرية من سكان فلسطين هم العرب سواء كان ذلك من الكنعانيين في بداية عمران الأرض، أو كان باسم لفظ العرب فيما يلي من القرون، بل إنَّ العرب حكموا البلاد بصفتهم واسمهم العربي قبل الإسلام بثمانية قرون، ومنذ ذلك الوقت ظلوا عاملاً أساسياً في

(٢٥) عن «تاريخ فلسطين القديم، لظفر الإسلام خان» ص ١٥٣.

السياسات الفلسطينية في صورة الأنباط[٢٦]، والأيدوميين والتدمريين والغساسنة. ولاشك أن قادمين جدداً من شبه الجزيرة وضعوا رحالهم في فلسطين بعد الفتح الإسلامي، شأنهم في ذلك شأن أي شعب فاتح، ولكن لا يمكن إنكار أنّ الهجرة العربية إلى فلسطين كانت قبل ظهور الإسلام بكثير، وإنْ ازدادت بعده...

وكون العرب أقدم من الإسرائيليين في فلسطين، ليست كلمة نقولها نحن العرب فقط، وإنما هي شهادة الدارسين من غير العرب، يقول جفريز في كتابه «فلسطين إليكم الحقيقة» [ترجمة أحمد خليل الحاج] القاهرة سنة ١٩٧١م]: «ولكن القادمين الجدد الذين تدفقوا على هذه البلاد آنذاك ـ إبان الفتح الإسلامي ـ انصهروا مع سكانها الأقدمين، لدرجة أن عرب اليوم في فلسطين، لا يمثلون مجرد جنس فاتح، ولكنهم سلائل تلك الشعوب التي عاشت فيها قبل الإسرائيليين. إننا نسميهم عرباً، ولكنك لابدّ وأن تجد في خضم بحر جنسهم العظيم الذي يمتد من الاسكندرونة إلى مكة وما بعدها، كثيراً من الأعراق وأن جذورهم في هذه الأرض هي تلك الجذور التي نشأ منها التاريخ في حدّ ذاته... ويقول: وما من شك أنها مفاجأة كبيرة بالنسبة للقارئ المتوسط أن يعلم أن العرب أسبق من اليهود في سورية وأن الجهل بهذه الحقيقة ـ الجهل الشائع لدينا ـ هو في الواقع سند تعتمد عليه الدعاية الصهيونية السياسية.[٢٧]

وينقل الأستاذ جفريز في كتابه السابق رأي خبراء الأجناس فيقول: «إن رأي الفقهاء الأكفاء من أهل الخبرة والمعرفة أن فلاحي فلسطين الناطقين بالعربية، أخلاف للقبائل الوثنية التي كانت تعيش هناك قبل الغزو الإسرائيلي ـ أيام النبي موسى ـ وظلت أقدامهم ثابتة في التربة منذ ذلك التاريخ، وتوالت عليهم موجات الفتح المتعاقبة التي طغت على البلاد دون أن تحطمهم»[٢٨] وينقل عن الأستاذ ريتشارد تمبل قوله: «إن فلاحي فلسطين هم الأخلاف الأصلاء للكنعانيين الذين ورد ذكرهم في التوراة، إنهم أخلاف اليبوسيين والعموريين، ولابدّ أنه كانت لهم شخصيتهم الخاصة الأصيلة، وكان لهم شكلهم الثابت من أشكال المجتمع، وقد يكون نظامهم قد تهدّم بفعل الغزو اليهودي، لكنهم كما سيذكر قارئو التوراة، لم يخضعوا أبداً للنفوذ اليهودي، بل إنهم على العكس من ذلك، قد جعلوا القومية اليهودية في كثير من الأحيان تحس بقوة أثرهم إحساساً ينذر بالكارثة، ولا يكونون قد تحولوا إلى المسيحية بأعداد كبيرة في أيامها الأولى، إنهم بالاختصار قد أقاموا على عبادتهم القديمة للأوثان حتى جاء محمد (صلى الله عليه وسلم) إنهم يفلحون الأرض كفلاحين ملاك من الدرجة الأولى،

(٢٦) خطط الشام، لمحمد كرد علي ج ١، و «دائرة المعارف الإسلامية» المجلد الثالث ٢٠٨.
(٢٧) «فلسطين إليكم الحقيقة» ص ٣٥.
(٢٨) فلسطين إليكم الحقيقة ص ٣٦ ـ ٣٧.

ويخضعُون مباشرة للموظف الرسمي التركي المكلف بجباية ضريبة الأملاك.[٢٩]

ويقول المؤرخ الأمريكي، تشارلز ماثيوز. «وحيث إن بعض الناس المخلصين يؤمنون أحياناً ويعبرون عن فكرة تقول: إن العرب مجرد طفيليين في فلسطين، وأنه ينبغي لهم أن يفسحوا المجال لعودة اليهود أصحاب الحق الملاك التاريخيين لأرض التوراة، فيمكن أن تقال كلمة أخرى عن الأصول السلالية للبلاد: إن الواقع البسيط هو أن الشعب العربي في فلسطين ليس سليل أولئك القادمين الجدد الذين اقتحموا مع الفتح الإسلامي العربي في القرن السابع، إنّ أغلبية السكان المحليين سواء العرب المسيحيين أو المسلمين، هي من جنس مختلط ترجع صلته بالأرض بعيداً إلى تاريخ قديم جداً، وإن هناك نزعة طبيعية لتبسيط التاريخ وذلك بالفكرة القائلة، بأن جميع مسلمي الأقطار المفتوحة جاءوا من الخارج وانتحلوا السلطة، وإنه لتصوّر لا يمكن لمعظم السكان المسلمين أن يفهموه وهو القول بأن أسلافهم كانوا من الجنس الفاتح.. ولا شك في أن عدداً كبيراً من العرب الحقيقين من عرب الجزيرة العربية قد استوطنوا في الأرض الجديدة، وتوجد شهادات على مثل هذا الاستيطان في التواريخ العامة والمحلية للشعوب الإسلامية صاحبة العقلية التاريخية، ولكن الفاتحين والمستوطنين الذين جاءوا وراء الانتصارات العسكرية والإدارة السياسية، لم يكونوا إلا قلة صغيرة بالمقارنة مع جماهير السكان التاريخيين المتصلين في الوجود، وقد تقبلت الأكثرية اسم العرب تدريجياً مع قبول الجميع للدين الجديد واللغة العربية ـ ولذلك فإن عرب فلسطين اليوم هم الشعب التاريخي للأرض، وكانت البلاد دائما بلادهم» [انظر: تاريخ فلسطين القديم ـ لظفر الإسلام خان][٣٠].

● ونلخص ما سبق في البحث بالقول: لم تطل حياة عنصر في الشام كما طالت حياة العرب، فإنهم فيها منذ أكثر من أربعة آلاف سنة، وهم الذين اندمج فيهم عامة الشعوب القديمة واستعربت فلم تعد تعرف غير العربية لساناً ومنزعاً، وفي تاريخ فلسطين أنّ العرب دخلوها قبل الإسلام بقرونه، لأن ابن سرجون غزا فلسطين سنة ٣٨٠ قبل الميلاد وصادف في سيناء دولة عربية، ولأن سرجون الثاني غزا عرب البادية الذين اعتدوا على السامرة وأخضع قبائلهم ومنها ثمود ومدين، ولما جاء الاسكندر إلى غزة وحاصرها كانت حاميتها من العرب فقاومته أشد مقاومة، ولأن أحد تلامذة المسيح بشر بلغات منها اللغة العربية ومنها أن «تيسطس» لما جاء لفتح القدس كان معه الحارث ملك العرب يقود فرقة عربية .

قال محمد كردعلي: والغالب أن العرب فيهم خاصية التمثيل، إذ جاوروا شعبا قربوه

(٢٩) المصدر السابق .
(٣٠) تاريخ فلسطين القديم ـ لظفر الإسلام خان ، ص ١٥٨ .

مناحيهم وأدخلوا عليه لغتهم. وهم المادة العظمى التي مازالت تفيض على الشام. وأهل الوبر والمدر أو البادية والحضر منهم. [خطط الشام جـ ١ / ٢٠].

ـ ضيـوف وغربـاء :

ومضى على وجود الكنعانيين العرب أكثر من ألفي عام في فلسطين بنوا في خلالها الممالك، وزرعوا الأرض. حينما حلّ إبراهيم الخليل عليه السلام ضيفاً على بلاد كنعان حوالي سنة ١٨٠٥ قبل الميلاد.

وقد وُلد إبراهيم عليه السلام في بابل من أرض الكلدانيين. ثم انتقل مع أسرته إلى حرّان ـ في بلاد ما بين النهرين ـ حيث عاش فترة من الزمن قبل أن يرحل مع ابن أخيه لوط وأهله إلى أرض كنعان. عن طريق تدمر. فدمشق حتى وصل إلى «شكيم» نابلس. وبيت إيل [منطقة رام الله] وأورشليم حيث استقبله كاهنها الأعظم. ملكي صادق الكنعاني. ثم ظل يتنقل بين فلسطين ومصر والحجاز. واتخذو مقراً في (حبرون) الخليل. وفي نحو ١٧٩٤ قبل الميلاد رزق إبراهيم بولده إسماعيل. جد العرب العدنانية. وهو الذي وصل بين فلسطين. وبين النبي العربي محمد صلى الله عليه وسلم. الذي ينتسب للعدنانيين. والمسلمين. إذ قام مع أبيه ببناء الكعبة المشرفة. ولهذا فإن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم يمتلك فلسطين بأربعة. حقوق:

الأول: لأنها مسقط رأس أبيه إسماعيل. ومدفن جده إبراهيم عليه السلام.

الثاني: لأن الله أرسله نبياً إلى العرب أولاً. وللعالم كافة ثانياً. وسكان فلسطين من العرب المقصودين بالدعوة. وقد أذن للعرب المسلمين ـ العدنانيين والقحطانيين ـ أن يوصلوا الدعوة إلى إخوانهم في بلاد الشام.

الثالث: أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاتم الأنبياء. ورسالته تشتمل على كافة الرسالات قبله. وإعمار المسجد الأقصى من حق الرسالة الإسلامية التي تعترف بالأنبياء كلهم.

الرابع: إن أول من بنى بيت المقدس. وقدّسه. وأقام فيه المعابد [٣١] هم الكنعانيون العرب. وذلك قبل مُلك داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ بأكثر من ألفي سنة تقريباً.

(٣١) وذلك بعد بنائه الأول. وقد ثبت أن البناء الأول للمسجد الأقصى كان على يد آدم عليه السلام للحديث الذي رواه البخاري وأحمد عن أبي ذر قال: قلتُ يارسول الله. أي المساجد وضع في الأرض أول. قال: المسجد الحرام. قال: قلتُ: ثم أيّ. قال: المسجد الأقصى. قلت: كم كان بينهما؟ قال: أربعون سنة» وقد ثبت أن إبراهيم عليه السلام لم يكن الباني الأول للكعبة. وإنما رفعها على قواعد آدم. وكذلك كل منْ ينسب إليه بناء المسجد الأقصى. إنما يكون قد رفعه على قواعد آدم عليه السلام . انظر « فتح الباري ». لابن حجر ك/ ٦٠ باب ٩.

● وبعد مولد إسماعيل - عليه السلام - بنحو أربع عشرة سنة رزق إبراهيم من زوجته الأولى - سارة - بولده الثاني إسحق، والد يعقوب الذي لُقب بإسرائيل، والذي أطلق اسمه على جميع ذرية يعقوب.. ونزح يعقوب وأولاده إلى مصر نحو عام ١٦٥٦ قبل الميلاد، ابتداءاً من يوسف عليه السلام الذي نعرف قصته، ثم تبعه أهله، الذين لم يبلغوا إلا بضع عشرات من الأفراد حيث كانت إقامة إبراهيم وذريته، من يوم قدومه إلى فلسطين حتى نزوح آل يعقوب إلى مصر، حوالي مائة وخمسين سنة، وإذا حسبنا المدة من يوم مولد إسحق بن إبراهيم، فقد لا تتجاوز المائة السنة - فأين هذه المدة القصيرة من آلاف السنين عاشها الكنعانيون في فلسطين؟

● وتكاثرت عائلة يعقوب (إسرائيل) بعد نزوحهم إلى مصر، وأضحى الإسرائيليون بتوالي الأيام جزءاً من سكان مصر، غير أن الفراعنة استعبدوهم وأخذوا يشغلونهم في الأعمال الشاقة، فاتجهت أفكار زعمائهم للنزوح عن مصر وقد تمّ لهم ذلك في عهد موسى عليه السلام، بعد مضي حوالي أربعمائة سنة على وجودهم في مصر.. فعبر موسى وقومه البالغ عددهم حوالي (٥٥٥٠) نسمة، بحيرة المنزلة في طريقهم إلى سيناء، «انظر كتاب: مصر القديمة، لحسن سليم ج ٧/١٣٣» ومن ثمّ إلى فلسطين، وكان ذلك نحو ١٢٢٧ قبل الميلاد وأرسل موسى عليه السلام رجالا ليتجسسوا ولما عادوا، قالوا: إن الأرض تفيض لبناً وعسلاً، غير أنه ليس لنا طاقة على حرب مَنْ منها، فجبن اليهود عن التقدم. وقص علينا القرآن قصتهم مع موسى فقال تعالى {ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم، ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين قالوا ياموسى إنّ فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون. قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين. قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها، فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون قال رب إني لا أملك إلاّ نفسي وأخي، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض، فلا تأس على القوم الفاسقين}. [سورة المائدة ٢١ - ٢٦]. وفي نهاية الأربعين سنة حاول موسى وقومه أن يدخلوا فلسطين من طرفها الجنوبي عن طريق بئر السبع، ولكنهم عجزوا عن ذلك

لما وجدوه من المقاومة الشديدة، وتوفي موسى عليه السلام قبل أن يدخل فلسطين، فسار قومه بقيادة «يوشع بن نون» باتجاه شرقي الأردن. ومن هناك عبروا نهر الأردن وعسكروا أمام أريحا، وكان عددهم لا يتجاوز ستة أو سبعة آلاف نسمة[٣٢] وحاصروا المدينة وافتتحوها عنوة، فقتلوا سكانها وحرقوا بيوتها ونهبوا نفائسها.

وفعلوا مثل ذلك في مدن (لبنة ـ تل الصافي ولخيش ـ تل الدوير وعجلون ـ تل الحسي وحبرون ـ الخليل ودبير ـ بيت مرسم) وبذلك تم ليوشع الاستيلاء على قسم من جنوبي فلسطين، وبقيت ممالك كثيرة ومناطق واسعة لم يدخلها، وهي «بيسان» و«تعنّك» و«مجدو» و«رأس العين» وعكا وسهولها، والطنطورة وقسم كبير من شمالي فلسطين، يبوس ـ القدس» فضلاً عن الساحل من الكرمل إلى سيناء الذي بقي بأيدي الفلسطينيين[٣٣]

(٣٢) يفنّد ابن خلدون في مقدمته أقوال المؤرخين في إحصاء هدد الجيوش القديمة، وبخاصة جيوش بني إسرائيل في زمن موسى وبعده. فيقول «وهذا كما نقل المسعودي وكثير من المؤرخين في جيوش بني إسرائيل وأن موسى عليه السلام أحصاهم في التيه، بعد أن أجاز مَنْ يطيق حمل السلاح خامسة من ابن عشرين فما فوقها، فكانوا ستمائة ألف أو يزيدون ويذهل في ذلك عن تقدير مصر والشام واتساعهما لمثل هذا العدد من الجيوش، وأن لكل مملكة من الممالك حصة من الحامية تتسع لها وتقوم بوظائفها وتضيق عما فوقها، تشهد بذلك العوائد المعروفة والأحوال المألوفة. ثم إن مثل هذه الجيوش البالغة إلى مثل هذا العدد يبعد أن يقع بينها زحف أو قتال لضيق مساحة الأرض عنها وبُعْدها إذا اصطفت على مدى البصر مرتين أو ثلاثاً أو أزيد، فكيف يقتتل هذان الفريقان أو تكون غلبة أحد الصفين، وشيء من جوانبه لا يشعر بالجانب لآخر، والحاضر يشهد لذلك، فالماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء. ولقد كان ملك الفرس ودولتهم أعظم من ملك بني إسرائيل بكثير، يشهد لذلك ما كان من غَلَب بختنصر لهم واستيلائه على أمرهم وتخريب بيت المقدس، وهو من بعض عُمَّال مملكة فارس، وكانت ممالكهم بالعراقين وخراسان وما وراء النهر... ومع ذلك لم تبلغ جيوش الفرس مثل هذا العدد ولا قريباً منه. وأعظم ما كانت جيوشهم بالقادسية مائة وعشرون ألفاً. وعن عائشة والزهري أن جموع رستم التي زحف بها لسعد بالقادسية إنما كانوا ستين ألفاً، كلهم متبوع.. وأيضاً فلو بلغ بنو إسرائيل مثل هذا العدد لاتّسع نطاق ملكهم، فإن العمالات والممالك في الدول على نسبة الحامية والقبيل والقائمين بها، والقوم لم تتسع ممالكهم إلى غير أجزاء من الأردن وفلسطين من الشام.. وأيضاً فالذي بين موسى وإسرائيل (يعقوب) إنما هو أربعة آباء، فإنه موسى بن عمران بن يصهر بن قاهش بن لاوي بن يعقوب، والمدة بينهما على ما نقله المؤرخون قالوا: دخل إسرائيل مصر مع ولده الأسباط وأولادهم حين أتوا إلى يوسف سبعين نفساً، وكان مقامهم بمصر إلى أن خرجوا مع موسى إلى التيه مائتين وعشرين سنة، تتداولهم ملوك القبط من الفراعنة ويبعد أن يتشعب النسل في أربعة أجيال إلى مثل هذا العدد... وإنْ زعموا أن عدد تلك الجيوش إنما كان في زمن سليمان ومن بعده، فبعيد أيضاً، إذ ليس بين سليمان وإسرائيل إلا أحد عشر أباً... ولا يتشعب النسل في أحد عشر من الولد إلى مثل هذا العدد الذي زعموه... والذي ثبت في الإسرائيليات أن جنود سليمان كانت اثني عشر ألفاً، وأن خيوله كانت ألفاً وأربعمائة فرس... وفي أيام سليمان كان عنفوان دولتهم واتساع ملكهم. (ا. هـ) ص ٩ من المقدمة].

(٣٣) انظر «تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم لمحمد عزة دروزة. ص ١١١ ـ وما بعدها.

ولما مات يوشع تولى أمر اليهود كبار شيوخهم، وقد عرف عهدهم بعهد القضاة» ويصف غوستاف لوبون هذا العصر بقوله كان بنو إسرائيل أقلَّ من أمة، كانوا أخلاطاً من عصابات جامحة، كانوا مجموعة غير منسجمة من قبائل صغيرة أفّاقة بدوية تقوم حياتها على الغزو وانتهاب القرى الصغيرة حيث تقضي عيشاً رغيداً دفعة واحدة في بضعة أيام، فإذا مضت هذه الأيام القليلة عادت حياة التيه والبؤس (انظر، اليهود في تاريخ الحضارات ص٣٢)... واستمر عهد القضاة ٣٥٦ سنة، ثم طلب اليهود من نبيّ لهم أن يعين لهم ملكا، يقاتلون معه أعداءهم، فجعل عليهم نبيهم طالوت ملكاً من سنة ١٠٢٠ ـ ١٠٠٤ قبل الميلاد، وبعد وفاته تولى داود عليه السلام حوالي ١٠٠٤ ـ ٩٦٣ قبل الميلاد، وكانت عاصمته الأولى الخليل ثم فتح القدس التي كانت بيد اليبوسين الكنعانيين حتى ذلك العهد ... وقد بلغت مملكة اليهود ذروتها في عهد داود، ولكنها لم تشمل فلسطين كلها.. ثم تولى سليمان بن داود في نحو ٩٦٣ ـ ٩٢٣ قبل الميلاد، وبني في عهده المعبد أو هيكل سليمان. وبعد وفاته انقسمت المملكة إلى قسمين مملكة إسرائيل في الشمال ومملكة يهوذا في الجنوب، ونشبت بينهما حروب ونزاعات ثم كانت نهاية مملكة إسرائيل على يد الأشوريين حوالي سنة ٧٢٢ قبل الميلاد وأما مملكة يهوذا فدامت بعد الأولى نحو ١٣٦ سنة، وكانت نهايتها على يد بختنصر الكلداني الذي استولى على القدس وأحرق الهيكل عام ٥٨٦ قبل الميلاد وسبى عدداً كبيراً منهم (انظر، بلادنا فلسطين جـ ١/ ٥٧٢، وتفسير سورة الإسراء، في تفسير الطبري، وابن كثير».

● وهكذا نجد من العرض السابق أن بني إسرائيل حلّوا أول الأمر ضيوفاً على بلاد كنعان ومكثوا حوالي مائة سنة خرجوا منها إلى مصر وعددهم حوالي سبعين نفساً. ومكثوا هناك قروناً تكاثروا فيها، وحلّ بهم الذل على يد الفراعنة، فأراد موسى عليه السلام أن ينقذهم مما هم فيه، ويتبعوا تعاليم السماء، ولكنهم خالفوا أمر ربهم. ورأينا أن مدة ملك بني إسرائيل وزمن قوته لم يتجاوز زمن داود وسليمان عليهما السلام، ولم تكن لهما السُّلطة على فلسطين كلها...

● وهناك شُبَه ترد على ذهن القارئ العجل، عندما يقرأ كتاب الله القرآن الكريم في بعض الآيات.

١ ـ منها قوله تعالى {يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين} (البقرة ٤٧) و ١٢٢ وقوله تعالى {وهو فضلكم على العالمين} [الأعراف ١٤٠] والجواب عن ذلك من وجوه:

أ ـ لقد ذكّرهم الله تعالى بنعمه عليهم في الماضي، لأنهم كفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فأراد أن يؤنّبهم على أنهم يكفرون النعمة ولا يعترفون بالجميل، لتولك لأحدهم: جعلتك أفضل الناس وتخونني.

ب ـ قال الشيخ الصابوني في صفوة التفاسير {وأني فضلتكم} أي: فضلت آبائكم. {على العالمين} أي: عالمي زمانهم، بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وجعلهم سادة وملوكاً، وتفضيل الآباء شرف للأبناء، فهو يدعوهم إلى العمل بسيرة آبائهم.

جـ ـ وفي تفسير ابن كثير: {وأني فضلتكم على العالمين} على عالم مَنْ كان في ذلك الزمان فإن لكل زمان عالما، ويجب الحمل على هذا، لأن هذه الأمة ـ الأمة المحمدية ـ أفضل منهم لقوله تعالى {كنتم خير أمة أخرجت للناس} وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنتم تُوفون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله». وقال في مكان آخر: والمقصود أنهم كانوا أفضل أمم زمانهم، وإلا فهذه الأمة ـ المحمدية ـ أشرف منهم وأفضل عند الله وأكمل شريعة وأقوم منهاجا: وأكرم نبيا وأعظم ملوكاً وأغزر أرزاقاً وأكثر أموالاً وأولاداً وأوسع مملكة وأدوم عزاً[٢٤].

د ـ ومن معانيها: أنه تعالى، فضل هؤلاء القوم بصحبتهم لموسى عليه السلام وإكرامه لهم بالخيرات الكثيرة التي خصّهم بها دون الناس، حيث قال تعالى: في سورة البقرة(٢٠) {وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين} يعني بذلك ما كان تعالى نزله عليهم من المنّ والسلوى ويظللهم به من الغمام وغير ذلك مما كان الله تعالى يخصهم به من خوارق العادات، ليحثهم على الجهاد في سبيل اللّ لأن الأمم الماضية ما كانت لتؤمن إلا بخوارق العادات المادية، فقوله تعالى {ما لم يؤت أحداً من العالمين} أي: عالمي زمانهم أو من سبقهم، وإلا فما أعطاه الله لمحمد وأمته أفضل مما أعطاه لهم.

٢ ـ ومن الآيات قوله تعالى على لسان موسى {ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم} [المائدة ٢١]. أي: التي وعدكموها الله على لسان أبيكم إسرائيل أنه وراثه مَنْ آمن منكم، فالأرض المقدسة، فلسطين، هي لكل مَنْ آمن باا، وكتبه ورسله، فلما كفروا بكتب الله ورسله وغيروا الكتاب المنزل على موسى حُرموا من حقهم في الأرض المقدسة، لأن تقديس الأماكن يكون بوحي من الله تعالى، لا من الناس، وما قدسه الله من الأماكن يكون عاماً لكل من اتبع أوامر الله، وقد آمن بعضُ اليهود بالقرآن، وأسلموا، فكان لهم الحق في الديار المقدسة كغيرهم من المسلمين، وبذلك تبطل أكذوبة أرض الميعاد، التي يتعلل بها

(٢٤) وانظر كتاب «إفحام اليهود» للسموأل بن يحيى المغربي، ص ٩٢.

الصهيونيون، لأنَّ الأرض المقدسة كتبها الله للمؤمنين من أتباع الرسل، ولم يكتبها لعرق مُعيَّن من الناس.

٢ ـ لم يذكر القرآن لبني إسرائيل شيئا من الفضائل، وما كان فضلاؤهم إلا أنبياؤهم وقليل من صلحائهم، وأما عامّة الشعب، فقد كانوا من المفسدين في الأرض، ولكثرة مفاسدهم أكثر الله من إرسال الأنبياء إليهم، فقد روي أنه كان بين موسى وعيسى ألف وسبعمائة سنة وألف نبي... وقد أكثر القرآنُ الحديث عن بني إسرائيل وأفاض في ذكر حوادثهم ووقائعهم ليأخذ الإنسان العبرة من حياة هذه الأمة الطاغية الباغية التي تقابل النعمة بالجحود والإحسان بالعصيان، فقد أغدق الله عليهم نعمه ونجّاهم من كيد عدوهم وأهلك فرعون وجنوده فما كان منهم بعد هذا الجميل إلا أن عبدوا العجل وتنكروا لدعوة نبيهم موسى، وقتلوا الأنبياء وسفكوا دماء الأبرياء. وكانت نهايتهم أن غضب الله عليهم ولعنهم، وضرب عليهم الذلة والمسكنة[٣٥] {ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون} [آل عمران ١١٢].

وليس أدل على كفرانهم النعمة من هذا المكر السيء الذي يحيكونه للعرب والمسلمين منذ جاء الإسلام، مع أن الإسلام جاء منقذاً لهم من الدمار المحقق الذي لحق بهم في ظل الحكم الروماني ومن سبقهم من الأمم، وذلك باعتراف مؤرخيهم، حيث تقول دائرة المعارف اليهودية العامة: «إن فتح العرب للبلاد أنقذ يهود فلسطين من الدمار الكامل». ويقول المؤرخ اليهودي هيامسون «وعمليا فيما يتعلق بيهود فلسطين، فإن المسلمين قد جاءوا كمنقذين وليسوا كمضطهدين».[٣٦]

● ولم يعد لليهود شأن يذكر بَعْد غزوة بختنصر، فكانوا بين الحين والآخر، يقومون بالثورات ويُقضى عليهم سريعاً، حيث قاموا بثورة سنة ٦٦م وتم سحقها عام ٧٠م على يد طيطوس الروماني، ثم قاموا بثورة بقيادة سمعان المدعو بركوكب وتم القضاء على هذه الثورة على يد هدريان الذي نكل باليهود أشد تنكيل ومنعهم من دخول القدس والسكن فيها والدنّو منها، وبقي العداء الشديد بين النصارى واليهود حتى الفتح الإسلامي. فطلب أهل القدس ألا يساكنهم فيها أحدٌ من اليهود فأجابهم عمر بن الخطاب إلى طلبهم، وأثبته في عهدهم[٣٧] وتشتتوا في الآفاق ولم يبق منهم في فلسطين إلا العدد القليل:

(٣٥) انظر: إفحام اليهود. فصل: «في إبطال ما يدّعونه من محبة الله إياهم». ص ١٢١. و«النبوة والأنبياء» للشيخ محمد الصابوني ص ١٨٤.
(٣٦) تاريخ فلسطين القديم ـ لظفر الإسلام خان ص ١٢٥.
(٣٧) تاريخ الطبري جـ ٣ / ٦١٠ ـ دار المعارف.

(أ) فقد زار بنيامين تودولا الإسباني فلسطين عام ١١٧٠ ـ ١١٧١م وذكر أن فيها (٢٠٠) يهودي وفي القرن المذكور لم يكن في القدس إلا يهودي واحد (تاريخ القدس لعارف العارف ٢٢٥).

(ب) وفي عام ١٢٦٧م كتب موسى بن نحمان جيروندي أن في القدس عائلتين يهوديتين يعملون في الصباغة[٣٨].

(جـ) وبعد ذلك بثلاثة قرون بلغ عددهم في القدس ١١٥ يهودياً.

(د) وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر عجز يهود القدس وعددهم (١٥٠) شخصاً عن دفع دينهم البالغ ألف قرش فرهنوا كنيستهم لدى الدائنين[٣٩].

(هـ) وكان عددهم في فلسطين في النصف الأول من القرن التاسع عشر ثمانية آلاف نسمة كما ذكر موسى مونتيفوري الثريّ الإنجليزي اليهودي موزعين على أربع مدن هي القدس وطبريا والخليل وصفد.[٤٠]

(و) وفي سنة ١٨٤٥م بلغ عددهم اثني عشر ألف نسمة.

(ز) وأما إحصاؤهم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين فقد قدروا بما يلي:

١ ـ سنة ١٨٨٢م ٢٤ ألف نسمة.

٢ ـ سنة ١٨٩٠م ٤٧ ألف نسمة.

٣ ـ ١٩٠٠م ٥٠ ألف نسمة.

٤ ـ ١٩١٤م ٨٥ ألف نسمة.

٥ ـ من سنة ١٩١٦م ـ ١٩١٨م ٥٧ ألف نسمة.

٦ ـ ١٩٢٢م ٨٣ ألف نسمة: بلغت نسبتهم ١١٪ من مجموع السكان.

٧ ـ ١٩٣١م ١٧٥ ألف نسمة بنسبة ١٧٪ من مجموع السكان.

٨ ـ ١٩٤٤م ٥٥٤ ألف نسمة.

٩ ـ وفي ٣١/٣/١٩٤٧م بلغوا ٦١٤ ألف نسمة بنسبة ٣١٪

[انظر: بلادنا فلسطين ـ لمصطفى مراد الدباغ جـ ١ / ٥٥٠].

٤ ـ كيف تسلل اليهود إلى فلسطين في العصر الحديث:

---

(٣٨) انظر «تاريخ القدس لعارف العارف» وكتاب «بلادنا فلسطين» للدباغ جـ ١/ ٥٥٠.

(٣٩) تاريخ القدس، لعارف العارف ص ٢٢٥.

(٤٠) العالم العربي ـ لنجلاء عزّ الدين ص ٢٠٠.

ما حلّ بفلسطين، نتيجة خطة محكمة، طبقها واضعُوها بالتدريج، على حين غفلة من العرب، أو على حين علم وتغافل بعد تشرذم الأقاليم العربية وانقسامها إلى دول، لكل دولة علمها، ورئيسها، وعضويتها في عصبة الأمم ثم في هيئة الأمم المتحدة؛ لأن قانون الأمم المتحدة لا يعترف لا بالعروق ولا بالأديان فكل دولة تعتبر مستقلة في شؤونها الداخلية والخارجية لا يربطها بالدولة الأخرى إلا الروابط الإنسانية أو النفعية أو القانونية التي تقرها الأمم المتحدة كما لا يحق لأي دولة عضو أن تتدخل في شؤون إقليم آخر مهما كانت العلاقات التاريخية بينهما.. وبناءً على هذا قالوا: إنّ إقليم فلسطين غريب عن دول مصر وسورية، ولبنان والأردن.. وغيرها لأنه خارج عن الحدود المعترف بها بين الدول.

وكان المخطط قد وُضعتْ خطوطه الأولى منذ عهد مبكر، وقبل عصر الدول، عندما كان العالم العربي جزءاً من الخلافة التركية. وقد التقت في هذا المخطط مصلحتان الأولى: وهي الأهم والأقوى: أطماع الدول الغربية وبخاصة بريطانيا.

والثانية: مصلحة وأطماع الصهيونية العالمية ولولا وجود الأولى لما تحققت الثانية.

وأطماع الدول الأوروبية بفلسطين قديمة. نظراً لما يمثله موقع فلسطين الجغرافي من أهمية اقتصادية وعسكرية ودينية، وتشهد الغزوات الصليبية على مدى قوة هذه الأطماع ومداها، واستعادت دول أوروبية اهتمامها بالمنطقة العربية في أعقاب احتلال بريطانيا للهند في القرن السابع عشر، كما تنبهت بريطانيا لأهمية المنطقة عندما جرَّد نابليون حملته على مصر وفلسطين في أواخر القرن الثامن عشر، فظهرت رغبتها في السيطرة على المنطقة بشكل أكثر مباشرة لما انطوت عليه حملة نابليون من تهديد خطير لمصالح بريطانيا في الهند.

ولذلك أرادت أن تحتفظ بالمنطقة لحساب نفوذها. ومن هنا كانت تعارض قيام أية دولة لها قوة حقيقية محلية في المنطقة ولذلك نظرت إلى بروز محمد علي الكبير في مصر بقلق بالغ ما لبث أنْ تحوّل إلى تدخل عسكري عندما هزمت جيوش محمد علي، بقيادة ابنه إبراهيم باشا، الجيوش العثمانية ووحدت مصر وسورية الطبيعية، مهددة بذلك عاصمة الدولة العثمانية ومصالح الدول الأوروبية في المنطقة، وعلى إثر ذلك عملت بريطانيا على الحفاظ على المصالح التجارية البريطانية في المنطقة تحت ستار حماية الأقليات الدينية.. وأعلنت بريطانيا حمايتها للدروز والبروتستانت واليهود في سوريا وجبل لبنان، وفلسطين، كما كانت الدول الغربية قد فرضت على تركيا ما عُرف بالامتيازات الأجنبية، فصار المقيمون الأجانب دولة داخل دولة لا تسري عليهم القوانين العثمانية...

وفي سنة ١٨٣٩م أقامت بريطانيا أول قنصلية غربيّة في القدس وجهت معظم جهودها لحماية الجالية اليهودية في فلسطين.. ولم تكن أهداف القنصلية الحماية فقط، فقد كان عدد

اليهود آنذاك لا يتجاوزُ تسعة آلاف نسمة[٤١] موزعين في أربع مدن، وإنما كان الهدف استقدام جاليات يهودية لأسباب ودوافع استعمارية. وقد ظهر هذا الهدف في رسالة بعث بها رئيس وزراء بريطانيا إلى سفيره في استانبول، جاء فيها «إن دعوة الشعب اليهودي إلى فلسطين، بدعوة من السلطان وتحت حمايته تشكل سداً في وجه مخططات شريرة يعدها محمد علي أو مَنْ يخلفه[٤٢] من هنا نرى كيف ارتبطت منذ البداية فكرة تشجيع استيطان اليهود لفلسطين بفكرة إقامة حاجز بشري استعماري غريب، يحول دون قيام دولة عربية مستقلة تضم المشرق العربي، وأفريقية العربية، حفاظاً على استمرار السيطرة الأجنبية على خيرات الوطن العربي.

وكانت المساومات قد بدأت بين روسيا وفرنسا وبريطانيا حول تركة الدول العثمانية، ولما نشبت الحرب الأولى، تمّ الاتفاق بين الدول الثلاث على تقسيم الحصص فنال الإنجليز فيما نالوه الاعتراف بأن تكون السواحل الممتدة من الحدود المصرية إلى حيفا فعكا منطقة نفوذ إنجليزية، أما بقية فلسطين فتكون دولية، ثم عقد الإنجليز مع الفرنسيين سنة ١٩١٦م معاهدة سايكس بيكو، حيث ثبت منها خليج عكا الذي يضم ثغري عكا وحيفا منطقة انجليزية، وبقيت المناطق الأخرى من فلسطين دولية.. على أن الإنجليز لم تفتر همتهم في أن تكون فلسطين لهم، فاتخذوا من اليهود وحركتهم وسيلة لتحقيق مآربهم، حيث أخذت فكرة استعمار واستيطان فلسطين قد أخذت تتقوى في هؤلاء نتيجة لما كانوا يلقونه من اضطهاد وخاصة في وسط أوروبا، وشرقها ولانتشار الفكرة القومية في العالم. وقد سعى اليهود بوسائط مختلفة من جملتها وساطة بريطانيا نفسها لدي الدولة العثمانية لتحقيق فكرتهم هذه، فلم يستطيعوا أن ينالوا إلا نتائج ضيقة المدى، كانت مع ذلك نواة مشروعهم.. حتى إذا كانت الحرب العالمية الأولى، تضامن اليهود مع الحلفاء، وخاصة مع بريطانيا من أجل أربهم، وسارع الإنجليز إلى تبنيّ قضيتهم حينما لاح لهم النصر، واحتل قائدهم «اللنبي» المناطق الجنوبية من فلسطين، فأصدروا تصريح بلفور في ١٩١٧/١١/٢م. وبعد الهدنة أخذوا يضغطون على فرنسا للتسليم بسيطرتهم على فلسطين بدلاً من الإدارة الدولية، وسلخ

---

(٤١) ذكرنا ص ٢٣، أن عدد اليهود في النصف الأول من القرن التاسع عشر حوالي ثمانية آلاف نسمة، حسب تقرير مونتيفودي، دون تحديد السنة. أما الرقم «تسعة آلاف» فهو منقول عن تقرير القنصلية البريطانية في القدس، وعلاقاتها بيهود فلسطين من سنة ١٨٣٨ - ١٨٩٤م - وانظر «تاريخ فلسطين الحديث» للدكتور عبد الوهاب الكيالي - بيروت سنة ١٩٧٣م.

(٤٢) «تاريخ فلسطين الحديث» للدكتور عبد الوهاب الكيالي. ص ٢٧ نقلاً عن وثائق الخارجية البريطانية.

منطقة شرق الأردن التي كانت جزءاً من سورية إدارياً، وكانت تقع في نفوذ فرنسا،[٤٢] والموافقة على دخول المنطقتين تحت انتدابها وسيطرتها... وما إن وضعت بريطانيا يدها على البلاد حتى أخذت في تنفيذ وعد بلفور، فكانت كل وظيفتها مدة الانتداب ١٩١٧ ـ ١٩٤٧م أن تسهل هجرة اليهود إلى فلسطين وامتلاكهم الأرض. فكيف تم ذلك، وكيف حاز اليهود الأرض قبل سنة ١٩٤٨م؟

ـ كيف امتلك اليهود أرضاً في فلسطين قبل سنة ١٩٤٨م:

لقد دأب اليهود وحماتهم بعد قيام الدولة اليهودية إلى تركيز الدعاية الكاذبة ضد عرب فلسطين، لإثارة كراهية العرب نحوهم، لأنهم ظلوا ـ مع ما وقع عليهم من شدائد ومحن تدك الجبال ـ أشدّ الأصوات ارتفاعاً وتصميماً على الثأر والعودة واسترداد الوطن الشهيد، ومما أشاعه اليهود، ولاكته ألسنة الجهال من العرب وغيرهم ـ أن عرب فلسطين هم الذين يسروا قيام الوطن القومي اليهودي بما باعوه من أرض، وظهر بينهم من سماسرة وخونة.. وقد شاع هذا القول حتى ردده بعض حملة الأقلام.. جهلاً، أو غفلة، إذا أحسنا الظن في بني قومنا... بل كنا نسمعه من جنود وضباط بعض الجيوش العربية التي دخلت فلسطين منقذة محررة.. ومن الملاحظ أن هذه الأسطورة تخمد أحياناً، وتحيا وتنشط أحيانا أخرى، ومن يراقب الأوضاع عن كثب، يلاحظ أن قوة الإشاعة تتناسب مع ما يظهره الفلسطينيون من قوة، وصمود وثبات على مبدأ العودة إلى الوطن. فكلما صعّد الفلسطينيون جهادهم وأظهروا قوة شكيمة، سمعنا بعض الأصوات التي تمضغ الكذب، تردد نشيد الأعداء، وتضرب على أوتارهم.

ومن الغريب العجيب أن بعض من يردد هذه الفريّة يدّعي العلم والمعرفة والتثبت والتدقيق في رواية الأحداث. فإذا تحدث في الموضوع، طُمس على قلبه، وفقد البصر والبصيرة وعجز أن يأتي بدليل واحد على ما يقول، فليس عند هؤلاء، رواية موثوقة متواترة (حدثني فلان عن فلان) من أهل الصدق في الرواية. وليست عندهم وثيقة رسمية يعتمدون عليها، ولم يقرأوا ذلك في كتاب معتمد مبني على الوثائق.. فكيف يقبلون الاعتماد على القصص الملفقة في موضوع له مساس شديد بالعقيدة، والعروبة والأمة؟..

وأنا عندما أضع الحقائق أمام القارئ، بصفتي الفلسطينية، أو العربية، لا أدافع عن الفلسطينيين، ولا أدفع عنهم ذنباً اقترفوه ولا أعتذر عن أمر فعلوه، ولا أفعل ذلك

(٤٢) القضية الفلسطينية جـ ١ / ٩ محمد عزة دروزة.

لأنهم أهلي وبني قومي، على طريقة الجاهليين ـ انصرْ أخاك ظالماً أو مظلوماً ـ وإنما أكتب ما أكتب إنصافاً للبرىء، وشهادة في حق المظلوم، وتصحيحاً للتاريخ وتنقية وتقويماً للروايات، معتمداً في ذلك أصدق المصادر وأثبت الروايات.

وإذا لم يبع الفلسطينيون أرضهم إلى اليهود، فكيف تم امتلاكهم الأرض قبل سنة ١٩٤٨م، وكيف تم توطين الآلاف من اليهود الذين كانوا يتدفقون أيام الانتداب البريطاني، وقبله؟ في الجواب عن هذا السؤال، إيجاز وتفصيل.

أما الموجز فيقول:

إن مجموع مساحة فلسطين نحو سبعة وعشرين مليون دونم، أي: ٢٧ ألف كيلٍ مربع، بلغ مجموع ما امتلكه اليهود حتى نهاية عهد الانتداب نحوا من مليوني دونم، أي: ٧٪، من مساحة فلسطين تقريباً. وفي إحصاء آخر أن مجموع ما حصل عليه اليهود ١,٥٨٨,٣٦٥ دونماً من مجموع مساحتها، وهو يشكل ٦,٥ في المائة من مجموعها. وقد تم هذا خلال عشرات السنين (قبل الانتداب البريطاني) من جهود الصهيونية العالمية، وفي مدة ثلاثين سنة من جهود بريطانيا الحاكمة.

ومجموع ما انتقل إلى اليهود من أيدي الفلسطينيين لا يزيد عن ربع مليون دونم ٢٥٠,٠٠٠ دونم، وهو يساوي أقل من ثُمْن ما حصل عليه اليهود. وأما سبعة الأثمان الباقية فقد حصلوا عليها من ثلاثة مصادر أخرى، هي: الحكومة التركية ـ والحكومة البريطانية ومن تجار الأراضي ومالكيها من غير الفلسطينيين الذين ليست لهم بأرض فلسطين وأهلها، لا صلةُ النَّسب ولا صلة القرابة، ممن سنعرف أسماءَهم فيما يأتي من التفصيل... وما كان هؤلاء الفلسطينيون القليلو العدد يبيعون هذه الدونمات لولا السياسة التي اتبعتها الدولة المنتدبة لإفقار الفلاح الفلسطيني، وجعله في حال تجبره على التخلي عن أرضه، بفرض الضرائب الباهظة، وخنق الاقتصاد العربي، وفرض قوانين جمركية لحماية الصناعة اليهودية.

أما بقية الأراضي، فقد حصل اليهود على ٦٥٠ ألف دونم امتلكها اليهود في عهد الدولة العثمانية، إما بواسطة الهبة، وإما بواسطة الشراء ممن وهبتهم الدولة العثمانية الأرض، وهم ليسوا من فلسطين. و٣٠٠,٠٠٠ ألف دونم منحتها لهم حكومة الانتداب بدون مقابل و٢٠٠,٠٠٠ ألف دونم منحتها إياهم حكومة الانتداب بأجرة رمزية و٦٠٠,٠٠٠ دونم اشتراها اليهود من عائلات غير فلسطينية[٤٤].

---

(٤٤) انظر «مذكرات عبد التلّ»، ص ٢٥٠.

وأنقل هنا شهادة اثنين من اليهود الذين كان لهم مشاركة فعالة في شراء الأراضي من خلال الوكالات والجمعيات اليهودية.

أولهما: الدكتور روبين من رجال الوكالة اليهودية في القدس، فقد قال في شهادة أدلى بها أمام لجنة التحقيق: إن تسعة أعشار الأراضي التي اشتراها اليهود حتى عام ١٩٢٩م، اشتريتها من مُلاَّك غير فلسطينيين يعيشون خارج فلسطين».

والثاني: هو الدكتور برنارد جوزيف، وهو محام يهودي، كلفته الوكالة اليهودية أن يدلي بشهادة أمام اللجنة الملكية حول قانون الأراضي وأراضي الدولة بفلسطين في الجلسة المنعقدة في القدس بتاريخ ١٩٣٧/١٢/٥م «إننا في خلال خمسين عاماً (٣٢ في العهد العثماني و١٨ سنة منذ الاحتلال البريطاني) قد اشترينا ١،٢٠٠،٠٠٠ دونم. وهذا كله يعادل خمسة في المائة من مجموع أراضي فلسطين وإذا نحن واظبنا على شراء الأراضي بالمعدل السنوي نفسه، فإننا نحتاج إلى مئة وخمسين سنة لشراء نصف الأراضي، باستثناء أراضي بئر السبع، وإذا أدخلنا أراضي بئر السبع احتجنا إلى ثلاثمائة سنة لشراء نصف فلسطين، وإلى ستمائة سنة لشراء فلسطين كلها. هذا إذا استمرت السياسة المواتمة. وقال: إن الفلاح العربي في فلسطين ذكي وداهية متوقد الذهن صلب الرأي شديد المراس مساوم ماهر. وعلى كل من يفاوض عربياً لشراء أرض، كما جرى معي أنا شخصياً أن يعلم أنه أمام ممسك اليدين، قدير، متذرع بالصبر الطويل، لا يتسرع في بيع أرضه..»[٤٥].

وإذا لم يكن الفلسطينيون قد باعوا الأرض، فكيف وصلت إلى العائلات غير الفلسطينية التي باعتها إلى اليهود، وكيف تمكنت حكومتا تركيا وبريطانيا منح أراضي فلسطين إلى اليهود؛ وما دليل صدق ما نقول؛ أقول: إن الأجوبة عن هذه الأسئلة، هو تفصيل ما وعدت به في بداية هذه الفقرة، وأما المصادر التي استقيت منها هذا البحث، فإنني ذاكرها في نهاية الكلام، وهي تعتمد على وثائق مكتوبة لا تقبل النقض، لأنها شهادة الأعداء والأصدقاء؛ أما سجلات الأعداء؛ فهي تقارير السلطة البريطانية المنتدبة وسجلات الأراضي (الكابو).. ولدى مؤسسة الدراسات الفلسطينية ملفات إحصائية تفصيلية في الموضوع، فمن أراد أن يتثبت فليرجع إليها.

أما كيف حصلت العائلات غير الفلسطينية على أرض فلسطين، وكيف قدمت حكومتا تركيا وبريطانيا الأرض إلى اليهود، فالجواب عنهما في هذا التفصيل:

(٤٥) مذكرات أكرم زعيتر ص ٢٦١.

● أقول: لم يكن يسمح للسكان اليهود في فلسطين في أوائل القرن التاسع عشر أن تشتغل بغير التجارة. وفي مطلع عام ١٨٣٧م ـ أيام الحكم المصري لفلسطين ـ طلب يهود القدس السماح لهم بشراء الأملاك والأراضي الزراعية وممارسة الحراثة والزراعة وبيع الأغنام والأبقار، ولما عرض الأمر على مجلس الشورى في بيت المقدس، رفض الطلب، ولم يسمح لليهود إلا بالاشتغال بالتجارة فقط وقد صادق على هذا القرار صاحب مصر محمد علي باشا في حينه.[٤٦]

وكانت إقامة اليهود مقصورة على المدن الأربع: القدس، وطبرية، وصفد والخليل، وكان معظمهم من المتدينين الذين كانوا يعيشون على نظام الصدقات اليهودية، وعمل نفرٌ منهم مهنيين وفنيّين وبرعوا في الصياغة والحدادة وإصلاح الساعات وتجليد الكتب..

ومنذ أن برزت سياسة الاستيطان الصهيوني في فلسطين، أخذت الصهيونية تسعى منذ أواخر العهد العثماني وطول فترة الانتداب البريطاني للحصول على الأراضي الزراعية بشتى السُبل، وتكوّنت جمعيات وهيئات لهذا الغرض، وبذلوا الأموال الطائلة وأغلوا ثمن الأرض إلى شكل خيالي[٤٧]، ومما ساعد على تملكهم الأرض بمساحات واسعة في فلسطين.

أ ـ الهبات والعطايا من الدولة الحاكمة: ففي عهد السلطان عبد العزيز العثماني (١٨٦١ ـ ١٨٧٦م) منحت الحكومة العثمانية اليهود أرضاً مساحتها (٢٦٠٠) دونم بالقرب من يافا وأقيمت عليها في عام ١٨٧٠م مدرسة زراعية حملت اسم «مكفة إسرائيل» بمعنى «أمل إسرائيل» وتعرف باسم مدرسة «نيتر» نسبة إلى مديرها ومؤسسها اليهودي «نيتر». والغرض من تأسيسها بث الروح الزراعية بين اليهود المقيمين في فلسطين[٤٨].

ب ـ سياسة سلطات الانتداب البريطاني إزاء الاستيطان اليهودي: فقد آلت جميع الأراضي التي كانت بحيازة الحكومة العثمانية إلى إدارة الانتداب على فلسطين، ووضعت سلطة التصرف فيها بيد المندوب السامي البريطاني. فكان من حقّه وحده إجزال المنح منها أو تأجيرها أو السماح بالاستقرار فيها.

وقد سارع أول مندوب سامي بريطاني، هربرت صموئيل، وهو يهودي صهيوني كما وصفه وايزمان في مذكراته إلى تقديم ١٧٥ ألف دونم من أخصب أراضي الدولة على الساحل

(٤٦) في بيت المقدس «لمصطفى الدبّاغ»، ص ٢٧. نقلاً عن المحفوظات الملكية المصرية.
(٤٧) في شهادة الحاج أمين الحسيني سنة ١٩٣٦م أمام اللجنة الملكية، أن اليهود كان يملكون حتى سنة ١٩١٧م مائة ألف دونم تقريباً.
(٤٨) صدر الفرمان سنة ١٨٧٠م، ونشرت نصه جريدة فلسطين سنة ١٩١٢م. انظر «في بيت المقدس» لمصطفى الدباغ جـ ٢ / ٤٢

بين حيفا ويافا هدية إلى أبناء مذهبه الصهيونيين، أتبعها بعد ذلك بدفعة ثانية مقدارها ٧٥ ألف دونم على البحر الميت لإقامة مشروع شركة البوتاس، وتكررت هباته السخيّة إليهم من الأراضي الساحلية الخصبة حتى بلغ مجموع ما منح للصهيونيين أو نقل إليهم من أراضي الدولة نحو مليون وربع من الدونمات أي ٥٨٪ في مجموع الأراضي التي كان يملكها اليهود عام ١٩٤٨م[٤٩].

جـ ـ نظام الإقطاع: فقد ساد في فلسطين إبان الحكم التركي، النظام الإقطاعي، فاحتكرت الأرض حفنة من العائلات والأغنياء من داخل فلسطين وخارجها، وقد باع هؤلاء الأرض إلى الصهيونيين.

د ـ نظام الضرائب: فقد أدت زيادة الضرائب، وعجز الفلاح عن سدادها إلى خزينة الدولة، إلى استيلاء الدولة على أراضي الفلاحين وقراهم وعرضها في المزاد سنة (١٨٦٩م) لاستيفاء ديون الضرائب، وهكذا حصل أغنياء بيروت وتجارها من أمثال عائلات: سرسق، وتويني، وحتي، وفرح وسليم الخوري، على أخصب أراضي فلسطين في مرج بن عامر ووادي الحوارث والجليل.[٥٠]

هـ ـ القوانين البريطانية: فقد سنّت سلطة الانتداب قانوناً للأراضي كان هدفه تسهيل وصول الأرض إلى الصهيونيين، ومن تلك القوانين. أنه يحرم على المُلاّك الذين لا يسكنون فلسطين استغلال أراضيهم، وكانت هناك إقطاعات واسعة تملكها عائلات لبنانية وسورية تقيم في بيروت ودمشق، وهذه الإقطاعات كانت من أجود الأراضي التي استهدفها القانون ـ فباع هؤلاء أرضهم إلى الصهيونيين، لأنهم يدفعون من الأثمان ما لا يدفعه غيرهم، ومالكو الأرض ' تربطهم بالوطن عاطفة.[٥١]

و ـ نظام ملكية الأرض: فقد كانت معظم الأراضي الزراعية من الأراضي الميري التي تملكها الدولة العثمانية، ويحق لها استرجاعها من المنتفع بها إذا رأت أن صاحبها قد أهملها، وفي المناطق التي كان يحق للمواطن استخراج الحجة بامتلاك أرضه كان العرب يحجمون عن ذلك فرارا من الضرائب الكثيرة[٥٢].

(٤٩) انظر «مذكرات عبد الله التلّ» ـ ص ٢٥٠.
(٥٠) القضية الفلسطينية، لمحمد عزة دروزة جـ ١/ ٦٠.
(٥١) بين سنة ١٩١٧م إلى ١٩٢٠م ـ باع سرسق دفعة واحدة من الأرض مقدارها (٤٠٠) ألف دونم. ولم تكن تسجّل في الكابو في حينها. [مذكرات أكرم زعيتر ص ٢٦١].
(٥٢) الموسوعة الفلسطينية مادة (أرض).

ز ـ صكّ الانتداب البريطاني الذي كان هدفه الوحيد، تهيئة الأحوال لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، وتحقيق وَعْد بلفور.

٥ ـ إحصاءات عينية لما اشتراه الصهيونيون من غير الفلسطينيين:

كانت أهم المناطق التي شهدت قيام بعض الأسر الإقطاعية غير الفلسطينية ببيع ممتلكاتها منها للصهيونيين والتمهيد لطرد سكانها العرب منها: «سهل مرج بن عامر، وسهل الحولة، وسهل عكا، والجزء الشمالي من السهل الساحلي الفلسطيني.

أ ـ سهل مرج ابن عامر: كانت أراضي سهل مرج بن عامر وسهل بيسان في العهد العثماني ملكاً للسلطان العثماني، وكان الفلاحون الفلسطينيون يستغلونها ويدفعون ما عليهم للسلطان لقاء استغلال الأرض (العشر)، ثم منح السلطان العثماني صيارفة يقيمون في بيروت ما مساحته ٢٣٠ ألف دونم من أراضي المرج مقابل خدماتهم له.

وفي عام ١٨٦٩م اضطرت الحكومة العثمانية إلى بيع بعض تجار وأغنياء بيروت معظم ممتلكاتها في سهل مرج بن عامر، ومن القرى التي بيعت في هذه الصفقة: جنجار ـ العفولة ـ خنيفس، أم التوت ـ تل الشمام ـ تل الفرّ، تل العدس، معلول، سمونه، كفرتا، جيدا، أم العمد، وطبعون، والشيخ بريك ومسحة، وجباتا، والورقاني[٥٣].

وفي عام ١٨٧٢م باعت الحكومة إقطاعيين آخرين قرى، الحارثية والياجور والخريبة.. وقد باع هؤلاء التجار إلى الصهيونيين بين عامي ١٩٢١ ـ ١٩٢٥م أكثر من مائتي ألف دونم من أراضيهم في سهل مرج ابن عامر، وكانت تلك الأراضي تشتمل على ٢٢ قرية عربية تقطنها ١٧٤٦ عائلة ونتيجة للبيع، اضطر أفراد العائلات العربية البالغ عددهم تسعة آلاف نسمة إلى ترك الأراضي وهجر المنازل، تحت تهديد سلطات الانتداب البريطاني فاستولى الصهيونيون على الأرض والقُرى وأقاموا فوق أنقاضها ستا وخمسين مستعمرة صهيونية، أشهرها: كفار باروخ، ونهلال، وكفار دافيد وعين حارود، ومرحفيا[٥٤].

ب ـ سهل الحولة: تقدر مساحة هذه المنطقة بنحو ١٦٥ ألف دونم، وكانت الحكومة العثمانية قد أعطت إحدى الأسر اللبنانيةامتيازاً ينص على استصلاح ٥٥ ألف دونم من أراضي مستنقعات الحولة، وعندما عجزت هذه الأسرة عن تنفيذ الامتياز باعته للصهيونيين، وكان من نتائج ذلك أن طردت العائلات العربية من قراها الواقعة ضمْن منطقة الامتياز، ومن

(٥٣، ٥٤) «بلادنا فلسطين» جـ ١/ص ٥٠ ـ ٥١.

هذه القرى: خان الدوير، ومداخل، والمنشية، ودفنة، وحقاب والمطلة[٥٥].

جـ ـ سهل عكا: كانت أسرتان لبنانيتان تمتلكان مساحة كبيرة من أراضي سهل عكا، وقد بيعتْ هذه المساحة الواسعة إلى الصهيونيين، وكانت تضم هذه المنطقة عدداً من القُرى العربية منها: الانشراح، وحانوتا والدار البيضاء، والهريج. وقد أخرج سكان هذه القرى العربية من أراضيهم عنها تسليم البائعين أثمانها. وعندما كان المواطنون يرفضون الخروج من بيوتهم تسلط عليهم بنادق الجيش الإنجليزي.

د ـ القسم الشمالي من السهل الساحلي الفلسطيني:

اشتمل هذا القسم الشمالي من السهل الساحلي على مستنقعات وكثبان رملية في مساحة صغيرة منه في حين كان معظمه أراضي خصبة صالحة للزراعة، وقد تمكن بعض الإقطاعيين من امتلاك جزء من هذه الأراضي فحصلت أسرة لبنانية اقطاعية على ملكية وادي الحوارث منحة من السلطان العثماني مقابل خدمات قدمتها له، وامتلكت أسرة أخرى أربعة آلاف دونم في وادي القباني.. فأقدم أحدُ الإقطاعيين عام ١٩٢٢م على رهن حصته في أراضي وادي الحوارث عند رجل فرنسي، فباعها الفرنسي إلى الصهيونيين ثم اشترى الصهيونيون حصة اقطاعي آخر، ثم ادّعى الصهيونيون أن البيع يشمل ما يخص قبيلة الحوارث العربية، ونظرت المحكمة في القضية وكانت في جانب الصهيونيين.. فقامت سلطات الانتداب بطرد العرب من وادي الحوارث سنة ١٩٣٣م وكان عددهم خمسة عشر ألف عربي..[٥٦].

٦ ـ تلخيص الأرقام:[٥٧]

أ ـ استولى اليهود على أربع مائة ألف دونم من الأراضي الزراعية في عهد الدولة العثمانية، بالهبة أولاً، وبالشراء من مُلاّك كبار، وليسوا فلاحين، وهم في جملتهم غير فلسطينيين.

ب ـ وحصلوا على ٣٠٠,٠٠٠ دونم من الدولة البريطانية اۤجرة.

جـ ـ وحصلوا على ٨٠٠,٠٠٠ دونم اشتروها من ملاك غير فلسطينيين، في العهد البريطاني، وكانوا قد اشتروها بالمزاد من الدولة العثمانية، حيث كانت بعض القرى تتأخر عن دفع الأعشار للدولة، فكانت الدولة العثمانية تبيعها بالمزاد، وكان أهل القرى قد رفضوا

(٥٥) «الاستيطان اليهودي في ريف فلسطين» في مجلة «دراسات عربية» سنة ١٩٧٥م.

(٥٦) الموسوعة الفلسطينية (وادي الحوارث).

(٥٧) للتوثيق انظر «النكبة» لعارف العارف، الجزء الخامس. و«مذكرات عبد الله التلّ» و«معجم بلدان فلسطين» للكاتب ص ١ ـ ٤٠. وكتاب «جهاد شعب فلسطين في نصف قرن» لصالح مسعود ص ٤٧١ ـ ٤٧٨.

تسجيل أرضهم على أنفسهم خوفاً من الجندية والضرائب، فاعتبرتها الدولة العثمانية محلولة من العقد وباعتها بالمزاد، وبهذه الطريقة اشتراها ملاك من سورية ولبنان.

د ـ إن مجموع ما منحته حكومة الانتداب لليهود، هو نصف مليون دونم من أملاك الدولة، ثلاثة أخماسها بلا مقابل، والخمسان الباقيان لقاء أجرة اسمية.

هـ ـ اشترى الصهيونيون ما مقداره ١,٢٤٧,٠٠٠ دونم من أصحاب الإقطاعات الواسعة من خارج فلسطين، وكلهم لبنانيون وسوريون منهم: آل سرسق، من بيروت، باعوا ٤٠٠,٠٠٠ دونم من أراضيهم الواقعة في سهل مرج بن عامر. وقد أنشأ اليهود فوق الأراضي التي اشتروها من آل سرسق وحدها ستاً وخمسين مستعمرة أنشأوها على أطلال خمس عشرة قرية عربية كانت هناك.

وآل التيان والقباني، من بيروت، باعوا ٣٩,١٢٤ دونماً من أراضي وادي الحوارث.

وآل الصباغ والتويني، من بيروت، باعوا أراضيهم الواقعة في السهل الساحلي بين عكا وحيفا، وفيها قرى الهريج، والدار البيضاء والانشراح.

وآل الجزائرلي وشمعة، والقوتلي من سورية باعوا أراضي قرية المنشية شمال شرقي عكا.
وآل العمري من دمشق باعوا أراضي قريتي إجليل والحرم (منطقة يافا ومساحتها حوالي ١٦ ألف دونم، وطرد منها ٧١ مزارعاً عربياً. [انظر: فلسطين والانتداب البريطاني] لكامل خلة ص ٤٩٣.

وآل الماردينى من سورية باعوا قرية «فندق» من أراضي صفد.

... وهناك عائلات أخرى لبنانية كانت تمتلك أراضي على الحدود الشمالية لفلسطين، باعوها أيضاً إلى اليهود الصهيونيين.

ويمكن تلخيص مصادر الأراضي التي حصل عليها اليهود فيما يلي:

١ ـ المُلأك الغائبون ومعظمهم من الأسر اللبنانية والسورية.

٢ ـ الحكومة العثمانية وذلك عن طريق المزاد العلني الذي تباع فيه أراضي الفلاحين العاجزين عن دفع الضرائب.

٣ ـ المُلأك الفلسطينيون(٥٨) ومنهم عائلات ـ كسار ـ روك خوري، حنا [نقلاً عن: تاريخ

(٥٨) إنّ مجموع ما انتقل إلى اليهود عن طريق الفلسطينيين، يتروح بين ٣٠٠,٠٠٠ دونم، وبين نصف المليون دونم، على اختلاف الروايات، وكان البائعون على الأغلب، من الإقطاعيين، والأفندية وليسوا من الفلاحين، ومهما كان الأمر، فإن هذا الرقم، لا يشكل قاعدة لإقامة المجتمع الصهيوني ولا يمكن أن يوصف شعبٌ بأكمله، من أجل هذه القلة المارقة، بأنه فرط في أرضه، وفي كل مجتمع يوجد مثل هؤلاء العابثين الذين ينظرون إلى الوطن، من ناحية منظارهم الشخصي النفعي.

فلسطين الحديث للدكتور عبد الوهاب الكيالي، عن مخطوط مؤلف سنة ١٩١١م].
٤ ـ الهبات من سلطات الانتداب البريطاني.

ـ موقف العرب الفلسطينيين من بيع الأراضي واستيطان اليهود(٥٩):

لم يقف العرب مكتوفي الأيدي إزاء هذه القضية، فأعلنوا الحرب عليها بكل ما لديهم من وسائل وأذكر هنا بعض المواقف التي تدل على الاستنكار الشديد، والمقاومة بكل الوسائل المتاحة:

أ ـ كان بعض الفلاحين الميسورين من الفلسطينيين يشترون الأراضي التي يصل إلى علمهم أن أصحابها من الفلاحين الفقراء أو من الاقطاعيين يزمعون بيعها إلى جمعيات صهيونية، كما أن المجلس الإسلامي الأعلى، تدخل لشراء بعض الأراضي من أصحابها خشية تسريبها إلى الصهيونيين، ومع ثقل هذه المهمة وصعوبتها فقد اشتُريت في بعض الأماكن قرى بأكملها مثل قرية «دير عمرو» وقرية «زيتا» التي دفع في سبيلها ٥٤ ألف جنيه استرليني، وكذلك الأرض المشاع في قرى «الطيبة» و«عتيل» و«الطيرة» ونهض صندوق الأمة أيضاً واشترى بعض الأراضي من الذين أثقلهم الدين، ودخل في قضايا كثيرة حتى أنقذ أراضي البطيحة وعرقل بيعها وحمى حقوق المزارعين.

ب ـ بدأت الاصطدامات المسلحة بين الفلاحين العرب والغزاة الصهيونيين منذ عام ١٨٨٦م، عندما هاجم الفلاحون (المطرودون من قراهم في الخضيرة وملبس) الغزاة اليهود... ودفعت هذه الاصطدامات في عام ١٨٨٧م إلى فرض قيود على هجرة المستوطنين الصهيونيين الذين كانوا يدخلون البلاد سياحاً بحيث لم يعد يسمح لهؤلاء السياح بالإقامة أكثر من ثلاثة أشهر، بموجب جواز سفر أحمر عوضاً عن جوازهم الأصلي عند دخول البلاد، وقد تكرر الهجوم على قرى يهودية أخرى وللدوافع نفسها عام ١٨٩٢م.

جـ ـ عندما عيُن رشاد باشا متصرفا لسنجق القدس، وأبدى محاباة للصهيونيين، قام وفد من وجهاء القدس سنة ١٨٩٠م بتقديم عريضة احتجاج ضده إلى رئيس الوزارة العثمانية، كما طالبوا بمنع هجرة اليهود الروس إلى فلسطين وتحريم استملاكهم الأرض.

د ـ في سنة ١٨٩٧م، حارب مفتي القدس محمد طاهر الحسيني، الهجرة اليهودية والاستيطان الزراعي اليهودي فترأس عام ١٨٩٧م هيئة محلية ذات صلاحيات حكومية

(٥٩) انظر لتوثيق هذه الفقرة «مذكرات أكرم زعيتر عن الثورة الفلسطينية» من سنة ٢٥ ـ ١٩٣٩م و«تاريخ فلسطين الحديث» للدكتور عبد الوهاب الكيالي.

مهمتها التدقيق في طلبات نقل الملكية في متصرفية القدس، فحال بذلك دون حصول اليهود على أراض زراعية جديدة لسنوات عديدة.

هـ - وفي سنة ١٩٠٠م قامت حملة جماعية ضد شراء الأراضي. وحدث أن قامت الجمعيات اليهودية بشراء مساحة واسعة من الأرض من عائلة سرسق اللبنانية بالقرب من طبرية، فما كان من فلاحي القرى المجاورة إلا أن هاجموا الفنيين الذين جاءوا لمسح الأرض تمهيداً لنقل ملكيتها، وقد نجح العرب بالفعل في استصدار أحكام من الباب العالي بإلغاء بعض الصفقات التي عقدها الصهيونيون في مطلع القرن العشرين.

و - عندما دعا العرب إلى الاستقلال عن تركيا، وجدتْ هذه الدعوى صدى في فلسطين، وكان من أهم أهداف الاستقلال عن تركيا، الاعتقاد باستحالة صد الخطر الصهيوني في إطار دولة مكبلة بقيود الامتيازات الأجنبية التي كان اليهود يستغلونها.

ز - في سنة ١٩٠٨م أثار توافد يهود الهجرة الثانية، استياء الفلاحين الفلسطينيين ورافق الاستياء من قدوم المستعمرين الصهيونيين موجة من الغضب على الملاك الإقطاعيين الذين كانوا يجنون الأرباح من بيع الأراضي للصهيونيين.

ففي شهر تشرين الثاني ١٩٠٨م وردت تقارير تدل على أن الفلاحين في منطقة حيفا وطبرية يظهرون شعوراً من العداء نحو الملاك العرب أصحاب الأراضي الشاسعة «مصطفى باشا، فؤاد سعد، آل سرسق».

ح - في سنة ١٩٠٩م نبّه أحد طلبة الأزهر الفلسطينيين في جريدة الأهرام القاهرية إلى أن اليهود كانوا يتبعون وسائل خبيثة ملتوية، كرشوة الحكام العثمانيين وذلك بقصد تسهيل شرائهم الأراضي في فلسطين.

ط - بدأت المعارضة أيضا قوية منذ نشوء الصحافة العربية في فلسطين، فقد حذرت صحيفتا «الأصمعي» و«الكرمل» من الخطر الصهيوني. وكشفت جريدة الكرُمل خاصة الخطر الصهيوني على فلسطين.. وأدت شكاوى اليهود من المقالات التي تنشرها الكرمل إلى إصدار أمر بتعطيلها تعطيلا مؤقتا سنة ١٩٠٩م.

ي - وفي سنة ١٩١٠م هاجمت الصحف العربية آل سرسق لاعتزامهم بيع قريتي «فولة» و«عفولة» لليهود. وأرسل سكان الناصرة وحيفا برقيتين إلى الحكومة المركزية محتجين فيها على السماح ببيع الأراضي لليهود.. ولم تذهب الاحتجاجات لدى السلطات العثمانية سدى، حيث أدت إلى تجديد القيود على بيع الأراضي إلى اليهود.

ك - حرصت فيما سبق على عرض قليل من أمثلة اليقظة العربية في فلسطين لمخاطر

الصهيونية منذ أيامها الأولى ولم استقص كل ما حدث من حركات تناوئ الصهيونية في العصر التركي وقد استمرت ثورات عرب فلسطين متوالية طيلة عهد الانتداب البريطاني مستخدمين كل مااستطاعوا إعداده من الأسلحة. بدءاً بالكلمة، ثم الأسلحة المادية من العصا، والسيف، والبندقية، والقنبلة، والحجر.. الخ ولم تهدأ الثورات منذ انتهت الحرب العالمية الأولى، حتى انتهى الانتداب.. وقد حارب الفلسطينيون وحدهم الإنجليز واليهود ثلاثين عاماً ـ مدة الانتداب ـ فلم يجبنوا ولم يهنوا، وقد صمدوا للجيش البريطاني، فكسروا كتائبه الأولى التي جاءت تحاربهم بقيادة الجنرال «ديل» سنة ١٩٣٧م، والثانية بقيادة الجنرال وبغل سنة ١٩٣٨م، والثالثة بقيادة الجنرال هايننغ سنة ١٩٣٩م.. والأيام الكبرى في تاريخ جهاد أهل فلسطين، تعتبر من تاريخ الاقتداء في تاريخ العرب... هذا الشعب الذي وقف في وجه بريطانيا العظمى، والصهيونية العالمية، وقدم آلاف الشهداء من أجل الحفاظ على أرضه، لا يمكن أن يوصف بأنه باع أرضه، وكيف يثور ويحمل السلاح مَنْ باع أرضه؟ كيف يبيع أرضه وهو الذي اشترى السلاح للدفاع عنها، بثمن أسورة زوجه، وبعيره الذي يحرث عليه الأرض، وثمن كيس القمح الذي كان يدخره لقوت عياله؟..

وقد رأينا، كم حصل اليهود من الدونمات حتى نهاية عصر الانتداب، (حوالي مليوني دونم) من أصل (سبعة وعشرين مليون دونم) مع كل ما استخدموه من وسائل الغش والخداع وأدوات الدمار وتكالب القوى العالمية على أهل فلسطين.. أما باقي فلسطين التي حصلوا عليها سنة ١٩٤٨م فكان بالغزو الصهيوني المسلح الذي حرم أهل فلسطين من المشاركة في دفعه عن البلاد حيث جُرد الفلسطينيون من سلاحهم ومنعوا من المشاركة، كما هو مثبت في تاريخ هذه الحرب، وفقد العرب الفلسطينيون نتيجة هذه الحرب المعلنة سنة ١٩٤٨م ٥٣٥ قرية وعشيرة في مدة لا تتجاوز أشهراً..

ل ـ وبعد سنة ١٩٦٧م، استولى اليهود على بقية فلسطين، ولكن أهل القرى لم يغادروها، وبقي كل واحد في أرضه وبيته، يكافح ويناضل ويثبت أمام قوة إسرائيل المدعمة بالسلاح الفتاك، وصبر الناس على التعذيب، والجوع والإرهاب ومن كان خارج فلسطين ـ سنة ١٩٦٧م ـ وحرم من العودة إلى أهله وبيته؛ يحاول كل واحد منهم الرجوع إلى بيته عن طريق ما يسمى «جمع الشمل» ويدفع بعضهم عشرات الآلاف من الدنانير رشوة للصهيونيين كي يحصل على «جمع الشمل» مع أن بيته الذي سيرجع إليه لا يساوي هذا المبلغ الذي سيدفعه، ولكن حبه لوطنه وأرضه يدفعه إلى شراء بيته، لأنه يدفع ثمن الولاء والحب والانتماء، بل إن عشرات من الناس يرسلون آلاف الدنانير إلى ذويهم ليبنوا لهم بيتاً ويحرثون أرضاً، مع أنهم محرومون من الإقامة الدائمة وقد يسمح لهم بالزيارة، وقد يحرمون منها...

بعض القرى التي باعها الإقطاعيون إلى الصهيونيين فدمرها الأعداء وأقاموا على أنقاضها المستعمرات

بعض القرى المدمرة حتى عام ١٩٤٨

البحر المتوسط

الأردن

التوزيع الإقليمي لسكان فلسطين حسب أقضيتها المختلفة عام ١٩٤٧ (بالنسبة المئوية)

القضاء	العرب وآخرون	اليهود
صفد	٨٧٪	١٣٪
عكا	٩٦	٤
طبرية	٦٧	٣٣
الناصرة	٨٤	١٦
حيفا	٥٣	٤٧
جنين	١٠٠	صفر
يافا	٢٩	٧١
الرملة	٧٨	٢٢
طولكرم	٨٣	١٧
رام الله	١٠٠	صفر
القدس	٦٢	٣٨
الخليل	٩٩	أقل من ١
بئر السبع	٩٩	أقل من ١
غزة	٩٨	٢
نابلس	١٠٠	صفر
بيسان	٧٠	٣٠

عرب
يهود

البحر المتوسط

البحر الميت

توزيع سكان فلسطين حسب أقضيتها ١٩٤٧م

أرض كنعان

البحر الأبيض المتوسط

وبعد ، فتلك هي قصة الأرض الفلسطينية ، تثبت ملكية العرب الفلسطينيين لها منذ القدم. وتثبت بطلان دعوى الصهيونيين. كما تثبت تمسك العرب الفلسطينيين بأرضهم وعدم تفريطهم في شبر منها. وقد بنيتُ هذه القصة على ما ثبت من التواريخ والوثائق، ولم أعتمد على العاطفة والوهم.. أرسل هذه القصة إلى المثقفين العرب الذين تاهوا في بحر أضاليل الأعداء ، وصدقوا أو كادوا هذه الأضاليل. حتى جرت على أقلام وألسنة بعضهم.. هدانا الله إلى سواء السبيل.

● مصادر البحث ●

١ ـ في الفقرات ١، ٢، ٣، أثبت بعض المصادر في الحواشي، وفي خلال الكلام وأهم مصادر هذه الفقرات:

أ ـ القرآن الكريم، وانظر تفسير ابن كثير.

ب ـ الآية الكبرى في قصة الإسراء «لجلال الدين السيوطي».

جـ ـ معجم البلدان، لياقوت الحموي.

د ـ تاريخ فلسطين القديم ـ ظفر الإسلام خان.

هـ ـ تاريخ فلسطين القديم ـ عبد الحكيم ذا النون.

و ـ بلادنا فلسطين جـ ١/ مصطفى مراد الدباغ.

ز ـ القبائل العربية وسلائلها في فلسطين: أربعة مجلدات ـ لمصطفى مراد الدباغ.

ح ـ الموسوعة الفلسطينية: في عدد من المواضع حسب حروف الهجاء.

ط ـ خطط الشام جـ ١ لمحمد كرد علي.

٢ ـ وأما الفقرات ٤، ٥، ٦.. فأهم مصادرها:

أ ـ النكبة: لعارف العارف ـ خمسة أجزاء في ثلاثة مجلدات.

ب ـ القضية الفلسطينية: محمد عزة دروزة. جـ ١.

جـ ـ تاريخ فلسطين الحديث: للدكتور عبد الوهاب الكيالي.

د ـ الموسوعة الفلسطينية في مواقع متفرقة.

هـ ـ فلسطين أولاً: لو كاس نحرو للنبرغ ـ ترجمة المركز الجغرافي الفلسطيني.

و ـ إني أتهم.. تأليف: روجيه ديلورم ترجمة نخلة كلراس.

ز ـ وللاطلاع على تاريخ ثورة لم تنطفئ، وجهاد لم ينقطع، انظر «يوميات أكرم زعيتر عن ثورة فلسطين» من ١٩٣٥م ـ ١٩٣٩م.